الحضارة الإسلامية

تأليف

خودا بخش

المؤرخ الهندى

ترجمة وتعليق

دكتور على حسنى الخربوطلى

مدرس التاريخ الإسلامى بجامعة عين شمس

يطلب من

دار الكتب الحديثة

١٤ شارع الجمهورية تليفون ٩١٦١٠٧

الحضارة الإسلامية

تأليف

خودابخش
المؤرخ الهندي

ترجمة وتعليق
دكتور علي حسني الخربوطلي
مدرس التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس

يطلب من
دار الكتب الحديثة
١٤ شارع الجمهورية تليفون ٩١٦١٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

يعتبر (خودا بخش) من أبرز المؤرخين والباحثين الذين تناولوا دراسة التاريخ الإسلامى بصفة عامة ، ودراسة الحضارة الإسلامية بصفة خاصة . وهو يعتبر فى مقدمة المؤرخين الهنود الذين اهتموا بالدراسات الشرقية والإسلامية المختلفة . ونحن ندين لهؤلاء الباحثين الهنود بكثير من الفضل ، فقد وضعوا لنا كثيرا من المؤلفات ذات القيمة العلمية الكبرى ، وكانت دراساتهم عميقة محايدة منصفة . ويبدو أن إقامتهم فى جوّ شرقى أو إسلامى جعلهم ينظرون إلى أحداث التاريخ الإسلامى وإلى الحضارات العربية والإسلامية بعين الحق والتقدير .

وضع (خودا بخش) كتابه عن الحضارة الإسلامية ، وطبع فى الهند عدة طبعات ، بعضها فى مجلد واحد ، وبعضها فى مجلدين . وبدأ (خودا بخش) كتابه بترجمة ما كتبه المؤرخ الألمانى الكبير (فون كريمر) فى موضوع الحضارة الإسلامية ، ثم أتبع الترجمة بتعليق له على دراسة (كريمر) .

لم نقم بترجمة دراسة (كريمر) أو تعليق (خودا بخش) عليها ، فقدسبقنا

أحد الأساتذة المصريين إلى ترجمتها ، واكتفينا بترجمة الفصول التى كتبها (خودا بخش) ولم يسبق ترجمتها إلى اللغة العربية .

درس (خودا بخش) الحضارة الإسلامية دراسة تاريخية على أسس علمية وطيدة ، وحرص على كتابة المصادر التى اعتمد عليها فى حواشى كتابه . وقد اعتمد على كثير من المصادر الألمانية ، بعضها معروف للدارسين العرب ، وبعضها مجهول ، ونحن ندين لخودا بخش أنه أطلعنا على هذه الدراسات الألمانية القيّمة ، والعلماء الألمان — كما هو معروف — كانوا فى طليعة المهتمين بالتاريخ الإسلامى . كما أن (خودا بخش) حرص فى دراسته للحضارة الإسلامية على أن يدرس موضوعات جديدة لم يسبقه أحد فى دراستها خلال دراسة الحضارة الإسلامية ، ولذا فقد جاءت دراساته مبتكرة منوّعة ، وصاغها فى أسلوب أدبى جميل ، مما جعل الدراسة مشوقة ممتعة .

أرجو أن يجد كل عربى وكل مسلم وكل شرقى فى هذه الدراسة العلمية المحايدة للحضارة الإسلامية ما يحقق له الفائدة العلمية ومتعة القراءة . وقد قمنا — إلى جانب الترجمة الحرفية الأمينة — بكتابة تعليقات فى حواشى الكتاب ، تحقيقا للفائدة المرجوة من هذه الدراسة . والله ولى التوفيق ؟

دكتور

على حسنى الخربوطلى

مدرس التاريخ الإسلامى بجامعة عين شمس

الجيزة فى أكتوبر ١٩٦٠

العرب قبل الإسلام

---

(١)

لا يمكن تقدير التعاليم التى قام بنشرها الرسول تقديرا حقيقيا إلّا بعد الإلمام بتاريخ العرب ـ الاجتماعى والدينى ـ قبل الإسلام . وسواء نظرنا إلى محمد كنبى موحى إليه من السماء ، أو كمصلح جرئ بعيد النظر ، فإن الشرق لم يشهد شخصية كان لها تأثيرها فى تاريخه مثل شخصية محمد . قبل محمد ، نبذ البعض ـ كما فعل محمد ـ عبادة الأوثان ـ ونظروا إلى الحياة نظرة أكثر سموّا ، ولكن لم يكن لهم من القوى الأخلاقية ما يمكنهم من أن يصارعوا التعاليم والعادات القديمة ، والطقوس الدينية والشعائر المقدسة التى كانت قد تشابكت مع حياة العرب ولا يمكن القضاء عليها إلّا بهدم المجتمع العربى من أساسه . شعر هؤلاء بحاجتهم إلى الإصلاح ولكنهم ترددوا فى إنتزاع أول حجر من أسس ذلك الدين . ولذا كانت جهودهم محدودة فلم تستطع التخلص من الماضى ، والقضاء على التقاليد البالية ، التى تنقص من شأنهم وأهميتهم

فى العصور القديمة[١] . ويمكننا أن نقول : إن محمـدا أخذ الشعلة من أيدى معاصريه، إذ لم يكن هناك غير محمد ، الذى كانت تحيط به العناية الإلهية ، ويشعر بالغيرة الدينية ، من غيره يستطيع أن يؤدى الرسالة ويقوم بالواجبات ويقدم من أجلها تضحيات شخصية عاجلة ؟ كانت روحه العالية لا تقبل تعدد الآلهة فى بلاد العرب ، وانصراف العرب إلى حياة الترف والشهوات . وأصبح يفكر دائما فى تحطيم هذا النظام القائم[٢] .

كانت مسألة حياة وموت ، ولـكن محمدا ألقى بنفسه فى المعمعة ، بكل قوة لديه ، ليخلق مجتمعا نقيا ، عظيما ، قويّا ، سليما .

---

(١) ظهرت قبيل الإسلام حركة اصلاحية داخلية تدعى بالحنيفية ، فقد كان من بين العرب أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية ، وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها ، وذلك لاختلاطهم باليهود والمسيحيين ، وجد بينهم من دعا إلى دين التوحيد ، ونبذ عبادة الأوثان والتخلص من عادات الجاهلية ، وكانوا يعتقدون فى البعث وبوجود إله واحد يحاسب ويجازى الناس على أعمالهم من خير وشر ، ويطلق على هـذه النزعه التحنف وعلى أصحابها الحنفاء . ولـكن هذه الحركة لم تعمل على إصلاح المجتمع العربى، فقد كرست جهودها نحو غرض واحد هو إستبدال عبادة الأصنام بالوحدانية مع أنه ليس بالبرنامج الواسع المطامع ، لم يلق فى أرض العرب مالقيته الحركتان السابقتان من توفيق وقتى (اليهودية والمسيحية) فـكانت أضعفهن ، وربما كان ذلك راجعا إلى إفتقارها إلى سند دنيوى يظاهرها وترتـكز عليه (المترجم)

(٢) كان محمد قبل نزول الوحى يعتنق دين الحنيفية ، وهو دين إبراهيم ، الذى دان به كثيرون من العرب الذين أنفوا من عبادة الأوثان ، فـكان لايحضر مواسم الحج ، ولا يشرب الخـمر ، ولا يحضر مجالس اللهو والسمر ، بل كان يخلو بنفسه بغار حراء يعبد الله . (المترجم) .

فى زمن مولد الرسول وخلال طفولته ، أبدى بعض النبلاء العرب عدم رضائهم عن الفوضى الدينية ، وأملوا فى دين أسمى من أديان وطنهم. روى ابن هشام فى كتابه عن سيرة النبي : « قال ابن إسحق : اجتمعت قريش يوما فى عيد لها عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويديرون به ، وكان ذلك عيدا لهم فى كل سنة يوما ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض . قالوا : أجل . وهم : ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ، وعبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة ابن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب ، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن عبد الله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عدى ابن كعب بن لؤى . فقال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين إبراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ ياقوم ، التمسوا لأنفسكم دينا فإنكم والله ما أنتم على شىء ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفيّة دين إبراهيم » [١] .

---

(١) عتمد المؤلف فى هذا النص على (Krehl : Das Lebn Moh. , p. 13) ولكننا رجعنا إلى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٧ ، طبعة الحلبي ١٣٥٥ هـ تحقيق السقا والابيارى (المترجم)

ونحن نقرأ أيضا عن أبى أنس قيس بن صرماح ، وزيد بن عمرو (وهو واحد من الأربعة الذين ذكرناهم آنفا) كنابذين لعبادة الأوثان فى العصر الجاهلى [١] . كما نقرأ أيضا عن الوليد بن المغيرة [٢] ، وعثمان بن مدهون اللذين نهيا عن شرب الخمر زمن الجاهلية [٣] .

هذه الحقائق تبيِّن الفوضى الدينية التى أدت إلى تشويش أفكار العرب. ورأينا أنه لا يضير محمدا ، بصفته نبيا ، أن يقتبس آراء معاصريه . فليس هناك مصلح أوسياسى أوحاكم يمكنه أن يخلق نظما جديدة ، بل عليه أن يساير الظروف ، وكم تتجلى عظمته حينما يستطيع أن يستفيد منها حتى تتاح له الفرصة لتحقيق هدفه . كانت جزيرة العرب مؤهلة للإصلاح ، وتبدو عظمة محمد فى ثاقب بصره وقوة عزيمته . ومن الصعب علينا أن نقدّر عظمة العمل الذى قام به محمد تقديرا حقيقيا إذ مرّ زمن طويل، ولكن نقول انه كان خارقا للعادة. فقد كان يعنى هدم النظام القبلى بحدوده الضيقة وعواطفه المحدودة ، والقضاء على عبادة الأوثان التى حفظها الزمن والعرف ، ومحو المثل العليا القديمة [٤] .

---

(١) ابن حزم : جمهرة الأنساب (طبعة Bankipore) — (المؤلف)

(٢) ابن قتيبة : كتاب المعارف ص ٢٧٣ (المؤلف)

(٣) ابن سعد : ح ٣ ق ١ ص ٢٧٦ ق ٢ ص ٢ (المؤلف)

(٤) بدأت عداوة قريش للرسول لأن جهره بالدعوة إلى وحدانية الله وغضه من شأن الأوثان يحطم دين العرب الموروث ، ويقضى على ما كان يتمتع به سدنة الكعبة من ثروة ونفوذ. إذ تسقط أهمية الأصنام، فتفقد مكة مركزها الدينى بين القبائل ، وينصرف الناس =

وأخيرا فرض الصيام والصلاة ، ووضع برنامجا إجتماعيا يفرض قيودا على الحرية المطلقة والمجون والخلاعة ، وهذا مالم يرض عنه الوثنيون العرب . كانت المهمة صعبة وخطرة ، فقد كانت المقاومة الداخلية والاتهامات الشديدة ترغم الرسول على أن يواجه الموقف ، حتى يواجه العقبات التى فى طريقه ويتغلب عليها ، وليتعهد نمو الإصلاح الدينى الجديد حتى يكتمل نضجه ، والذى كان لايزال فى نطاق ضيق لم تعرفه الجزيرة العربية بعد . فى بداية الأمر أنكر الوثنيون تعاليم الرسول وأهانوه ، ورأوا فيه رجلا طموحا متحمسا ، ولكن حينما زادت حماسته ، زادت مقاومة العرب له عنفا . وتقدموا بالشكوى إلى أبى طالب [١] لأن ابن أخيه يسب آلهتهم ويهاجم تقاليدهم ويصف عاداتهم بالتوحش ، ويعتبر آباءهم كفارا [٢] . لم تفلح القوة أو الاقناع فى أن تخرس أوتحطم هذه التعاليم السماوية . فى أسلوب بليغ جميل، وصف (كرهل Krehl) بداية البعثة النبوية المحمدية ، فقال : « كانت الكلمات القليلة التى تعبر عن الدعوة

= عن الحج وتكون خسارة قريش كبيرة . وكان عزوف قريش عن عبادة الأصنام يفقدها احترامها بين العرب ويعرض تجارتها للخطر . كان الإسلام يساوى بين الجميع بينما قريش تدين بنظام الطبقات . كان الإسلام يحرم الموبقات بينما سادة قريش يفتخرون بارتكابها (المترجم)

(١) تقدم وفد من قريش إلى أبى طالب فقالوا : « ياأبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، وإنك على مثل مانحن عليه من خلافه فنكفيكه » (المترجم)

(٢) Goldziher : Muh. Stud., V.1, p. 11

الجديدة تحوى فكرتين أساسيتين ،تتعارضان تماما مع دين العرب ، وهودين وثنى لاحياة فيه ولامعنى له ، ولم يقدم أحد منهم على أن يحدد العلاقات التى تربط هذه الآلهة المتعددة بالبشر ، أو تربط البشر بهذه الآلهة . كانت لديهم فكرة غامضة عن إعتماد البشر الدائم على قوة عالية ، فكانوا يقدّسون الأوثان ، بإعتبارها تمثل هذه القوة ،بواسطة طقوس وثنية ورثوها عن أجدادهم. أدّى تعدد الآلهة إلى ضعف قوة كل من هذه الآلهة المتعددة ، إذ أنه ليس الإله الوحيد بل له قرناء كثيرون . ولكن وثنية العرب لم تستطع أن تجيب إجابات مقنعة على الأسئلة البديهية التى تتردد فى ذهن كل شخص مفكر : من أين خُلقت ؟ إلى أى نهاية يكون مصيرى ؟ ماهدفى وغرضى من الحياة ؟ وأدرك محمد عقيدتين أساسيتين : لا إله إلّا الله ، والله هو الخالق ، خالق الإنسان . وكان إيمانه بهذه المعانى ، و إستفادته من هاتين الفكرتين ، عاملا على إرساء أساس عقيدة التوحيد التى تناقض عقائد الوثنيين الخاطئة عن العلاقة بين الله والعالم . لايستطيع أحد أن يزعم أن هذه الفكرة جديدة ، ولكنها كانت جديدة بالنسبة لمحمد ، وقد نبعت عن حاجاته الدينية . والإيمان بهذه الفكرة يعتبر خطوة هامة فى سبيل الإصلاح . حقا إن هذه الفكرة تقوم على فكرة قديمة ، ولكنها أدت إلى نتائج بعيدة المدى ، فقد حررت الناس من عبادة الماديات ، والظواهر الطبيعية ، وأعادتهم إلى دين التوحيد .

بعد فترة قصيرة من نزول الوحى على محمد لأول مرة، تكرر نزول الوحى وكانت أول آيات قرآنية هى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، (سورة ٩٦ آية ٤ ـ ٥) .

هذه الآيات ، فى رأى محمد ، تحتم الدعوة إلى الإيمان بالإله الواحد خالق كل شىء ، وبالتالى خالق الإنسان . ولما كان المخلوق لا يعرف شيئاً عن خالقه ، رأى الخالق أن يعلمه ذلك بطريق الوحى . نجد فى السورة ٧٤ من القرآن الكريم : (يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) . دعت هذه الآيات محمداً إلى أن يدعو الآخرين إلى الإيمان بما أوحى به إليه ، وأن يكون مستعداً للتعرض للأخطار ، وأن يصبر على ما يعانيه . وضعت هذه الكلمات القليلة أسس الدين الإسلامى بما حوته من تعاليم : وحدة الخالق ، وأن الله خلق الإنسان وقد بعث إليه بالرسول ينصحه ويحذره ، وأن عليه أن يخضع صابراً لإرادة الله الأحد[١] .

كانت عقيدة وحدانية الله ووحدانية الخالق ، تتعارض تماما مع طريقة تفكير العرب الوثنيين ، فالبشرية أو الخلق أشياء مجهولة غامضة . لم يكن

---

(١) Krehl : Das Leben Moh., pp. 59—62

لديهم مجتمع منظم ثابت ، ولذا عاشوا حيـاة فردية ، ولم يعرفوا الواجبات الاجتماعية . وفى ظل هذا المجتمع المفـكك ، كان (الحى) هو الوحدة الاجتماعية والسياسية . ولا يرتبط العربى بطاعة أو واجب أو عاطفة نحو أى وحدة أكبر من هـذا الحى الذى ارتبطت به كل آفاقه . أما الرباط الذى يرتبط به أبناء القبيلة فهو وحدة الدم . ولم يستطع العرب أن يصلوا إلى سلطة اجتماعية أووحدة اجتماعية تقوم على أساس الدولة . وهناك حالات كثيرة حدث فيهـا امتزاج الدم ، فيصبح الرجلان أخوين أو حليفين ، وهناك أيضا حالات أخرى ، فتتبنّى قبيلة أحد أبناء قبيلة أخرى ، بحيث يصبح عضوا عاملا فى القبيـلة الجديدة[1] . وإلى جانب هؤلاء الذين يرتبطون بالقبيلة برابطـة الدم يوجد أتباع للقبيلة ، يتبعونها بصفة دائمه ، وإن كانوا ليسوا من الرقيـق . وهؤلاء (ا) إمّا أحرار (ب) أولاجئون بعد خروجهم على قوانين قبيلتهم (حـ) أو جماعات من اليهود ، مثل يهود المدينـة ، الذين لم تسمح قوتهم لهم بأن يعيشوا مستقلـين . كانت بلاد العرب حافلة بالقبائل ، وكل قبيـلة تنظر إلى الأخرى نظرة عداء وتتحفز لقتالها وإلحاق الهزيمة بها . ولذا تميّز ذلك العصر بالحروب القبلية المستمرة . وقد حفظ الشعر العربى فى العصر الجاهلى كثيرا من المعلومات عن هذا العداء المتوارث الذى ينتقل من جيل إلى جيل . ومن

---

(١) Robertson Smith : Kinship and Marriage, p. 62.

أجل نجاح تعاليم محمد ، كان من الأهمية بمكان الحدّ من هـذه الانقسامات ، ونشر الشعور بالوحدة والأخوة فى العقيدة ، وقد أدرك محمد هذه الحقيقة تماما . وخير تعبير عن هذه الفكرة ، مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار فى المدينة . قال الرسول : « تآخوا فى الله أخوين أخوين » . وضرب مثلا بأن تآخى مع على أو — فى رواية أخرى — مع عثمان (١) . وأصبح كما قال (ميور Muir) — كل مهاجر أخا لأحد الأنصار . وأصبحت العلاقة بين كل أخوين وثيقة جدا ، لم تتمثل فى رعاية كل أخ لمصالح أخيه فحسب ، بل كان يرث كل منهما الآخر عند الوفاة (٢) ، وقدتم تآخى عدد يتراوح بين خمسة وأربعين وخمسين من المهاجرين مع مثلهم من أنصار المدينة (٣) . حث الرسول على هـذه المؤاخاة وسنّ لها سُنّة ، وهناك أحاديث نبوية عديدة تعبّر عن ذلك .

كان الشعور القبلى متأصّل الجذور بين العرب ، وخيرما يمثل هذا الشعور قصة تروى عن قبيلة بكر . فيروى أن هذه القبيلة كانت على وشك أن تناصر الرسول ولـكنها ترددت ، لأن دين عبد المطلب — كما قالوا — يمنع الحروب

(١) أخذ الرسول بيد على بن أبى طالب وقال : هذا أخى . وصار حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى الرسول أخوين، وتآخى أبو بـكر مع خارجة بن زيد بن الخزرج . (انظر ابن هشام جـ ٢ ص ١٢٣) . (المترجم) .

(٢) ظل التوارث بالمؤاخاة قائما حتى اجتمع شمل الأنصار والمهاجرين وأوقعوا الهزيمة بالمشركين فى بدر وعز شأن الإسلام فنزلت آيات فى سورة الأنفال (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ان الله بكل شىء عليم) . (المترجم) .

(٣) Muir : Life of Mohammed , V. 111, p. 17

القبلية ، ويمنع المسلم (حتى ولو كان ينتمى إلى قبيلة قوية) من أن يقتل مسلما آخرا ، ولذا فإن الإسلام يمنع قبيلة بكر من أن تغير على القبائل الأخرى التى اعتنقت الإسلام . وطلبت بكر من الرسول أن يسمح لهم بالإغارة على (تميم) ثم يعتنقوا الإسلام [١] هذه القصة تصوّر بوضوح تمسك العرب بعاداتهم القديمة ، ولم يتحولوا عنها إلى شعور إنسانى عام إلّا بعد جهاد طويل عنيف . و بعد أن نشر محمد روح الأخوة بين العرب ثم إعدادهم ليلعبوا دورهم العظيم فى تاريخ العالم .

من أبرز أسباب الحروب القبلية ، رغبة أشراف العرب أن يحوزوا المجد والثناء[٢] . و يبدو أنه كان لكل قبيلة شاعرها الذى يسوق لها المديح ، وينشد القصائد فى تمجيدها وتمجيد أبطالها وهجاء القبائل التى تعلن عداءها لقبيلته ، وكان هذا الهجاء يمثل سلطة عظيمة فى المجتمع العربى فى هذه المباريات التى كانت تقوم بين القبائل من أجل تفضيل كل منها على الأخريات ، كما يقول جولدتسيهر ، كانت كلمات الشاعر أكثر أثرا من سهام أبطال القبيلة[٣] وكانت الجروح التى تتركها هذه الكلمات أعمق من الجروح التى تحدثها السهام ، فقد كانت تصيب شرف القبائل وتتداولها الأجيال . و إذا أدركنا

---

(١) Goldziher , V. 1, p. 52

(٢) I pid, p. 41

(٣) كان الرسول يقول عن الشعر إنه أكثر تأثيرا من « نضح النبل » . (المترجم)

هذه الحقيقة ، فإننا لا ندهش إذا سمعنا أن منزلة الشعراء بين العرب كانت عظيمة . ويمكننا أن نقدّر أثر هذا الهجاء فى العصر الجاهلى حينما تتذكر أن الإسلام ، عند بداية ظهوره ، حرّم تداول قصائد الهجاء .

كان شعر الهجاء يؤثر كثيرا فى مركز القبيلة فى المجتمع العربى .أدّى بيت واحد من الشعر أنشده جرير إلى الحط من شأن بنى نمير إلى درجة كبيرة ، حتى إنه كان إذا سئل أحد أبناء هذه القبيلة عن قبيلته أنـكر إنتماءه إليها ، بل كان ينسب نفسه إلى قبيلة بنى عمير التى تفرعت نُمير عنها وأصبحت قبيلة نمير مثلا يتمثل به كل شاعر حينما يريد أن ينذر قبيلة ما بأنه سيهجوها فيثير بذلك مخاوفها ، فـكان ينذرهم بأنه سينزل بها من الهوان ما أنزله جرير ببنى نمير (١) . وأراد الرسول أن يستأصل جذور الشر فنهى عن الفخر بالأجداد وعن الهجاء . فقد كان الرسول يعمل بمـا جاء فى القرآن ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، كما قال الرسول (أيها الناس ، إن الله تعـالى أذهب عنـكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلـكم لآدم ، وآدم من تراب) .

كانت النتيجة المباشرة لتعاليم الرسول إنحلال النظام القبلى وظهور الأخوة

---

(١) Goldziher : Vol. 1, pp. 47—48

الإسلامية . لانستطيع أن نقول إن النظام القبلى قد اختفى تماما بعد ظهور الإسلام ، ولكنه ـ بدون شك ـ فقد صورته القائمة القبيحة فى العصر الأموى. لعبت العصبية القبلية دورا هاما فى السياسة ، ولكن فى صورة أخرى (١) .

إن التغييرات التى أحدثها الإسلام ، صورها بوضوح جعفر بن أبى طالب فى خطبته أمام نجاشى الحبشة (٢) : « أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » (٣) .

---

(١) انظر فصل عن العصبية القبلية فى كتاب تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى من تأليف مترجم هذا الكتاب

(٢) هاجر المسلمون إلى الحبشه فرارا من أذى قريش ، وغضبت قريش وبعث وفدا محملا بالهدايا الفاخرة يطلب من نجاشى الحبشة رد المهاجرين إلى مكة . وطلب النجاشى من المهاجرين أن يحدثوه عن حقيقة دينهم فألقى جعفر بن أبى طالب هذه الخطبة ، وشرح تعاليم الإسلام ، فبكى النجاشى وقال : إن هذا والنبى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . وأعاد وفد قريش خائبا . (المترجم)

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٢١٩ .

وخطبة جعفر هذه تصوّر لنا الموقف تماما . فالحقيقة الثابتة أن أهل ذلك العصر لم يكونوا غافلين عما أحدثه الإسلام منهم من تغيير فى العقيدة والأخلاق . وكان دخول محمد مكة رمزاً لانتصار عقيدته . وهذا الحدث هو أحد الأحداث القليلة فى التاريخ التى بدأت عهدا جديدا . فقد بدأت بلاد العرب بعد توحيدها ، بفضل جهود محمد تلعب دورا فى السياسة العالمية ، وهدأت العصبية القبلية ، وانفتح أمام العرب آفاق جديدة وتقدم أبناء الصحراء مدفوعين بالآمال والطموح والغيرة على الإسلام فعبروا حدود بلاد العرب يفتحون البلاد .

ولنقدّر الانتصارات المذهلة التى حازها الإسلام ، علينا أن ندرس الحياة الدينية والاجتماعية فى العصر الجاهلى . خير دليل على أن الإسلام دين سماوى هو انتصاره السريع العجيب فقد قضى على الشرك بالله ، وأحلّ بدله دين التوحيد ، وأوجد منهجا لحياة شريفة ، وحدّد الواجبات ، وهو عملٌ لم يكن يستطيع أداءه إلّا نبى مرسل .

(ب)

يبدو مثل العربى الأعلى فى الحياة واضحا فى العبارات الجميلة التى قالها طرفة [1] :

(١) اعتمد المؤلف على كتاب (William Jones , V. IV, p. 267) ، ورجعنا نحن إلى معلقة طرفة (المترجم)

(٢) .

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجَـدِّكَ لم أحفل متى قام عُوَّدى
فمنهن سبق العاذلات بشربة كُمَيْتٍ متى ما تُعلَ بالمـاء تزيد
وتقصير يوم الدَّجن والدجن معجب ببهـكنة تحت الخباء المعمد[1]
كأن البرينَ والدَّماليج عُلِّقت على عشر أو خروع لم يخضد[2]
وكرّى إذا نادى المضاف مُحَنَّباً كسيد الغضا ذى السورة المتورد[3]

كانت حياة العرب ، حياة حرية ومرح وسرور ومجون . وكانت الخمر ، والنساء ، والحرب ، هى الأشياء الثلاثة التى يحبها العربى ويهتم بهـا . فهو إما يستغرق فى الخمر ، أو ينصرف إلى العشق ، أو يستنفد قوته وطاقتـه فى الحروب القبلية أو سلب جاره . وكانت حياة مرح ، لا يعكر صفوها أفـكار خطيرة أو تأملات دينيّة . لم يكن هناك ميل للصدق أو رغبة فى عمل الخير . كان كل هدفهم من الحياة أن يتمتعوا بحاضرهم وأن يحوزوا النصر فى معاركهم . ولم يستطع الدين ، بما فيه من نواه وأفـكار نبيلة ، أن يقطع عليهم هدوءهم ، أو يعكر صفوهم . كان عرب الجاهلية منصرفين إلى التمتع بالملذات ، وإلى يومنا هذا نجد البدوى محتفظا بهذه الصفات ، فهو بطبيعته لا يتقيد بدين .

(١) الدجن : الغيم . البهكنة : الحسناء الخلق (المترجم)

(٢) البرين : الخلاخيل . الخروع : كل نبات قصيف ريان . لم يخضد : لم يـكسر . (المترجم)

(٣) المضاف : الملجأ . المحنب : المنحنى من الهزال . السيد : الذئب . الغضا : نوع من الشجر . السورة : الوثبة . المتورد : الوارد . (المترجم)

والعربى عملىّ واقعى يميل إلى الحقائق ، حتى فى شعره . وحينما يسرح فى الخيال ، فإنه لا يقيد نفسه بأفكار دينية .

أدى الإسلام ، بتعاليمه الدينية الصارمة ، إلى رقى أخلاق عرب الجاهلية ولذا فإنه بعد الانتصار التام للإسلام ، كانت كل المعارضة السلبية الصامتة الموجهة ضد الإسلام ، مركزة ضد تعاليمه التى تنهى عما يتنافى مع الأخلاق .

كان (الدين) ، وهو الذى كان محمد يستمد منه سلطته ، يصطدم فى عنف مع (المروءة) التى يعتبرها العرب الجاهليون من أبرز فضائلهم .

« كانت الشجاعة الشخصية ، والكرم الذى لا حدّ له ، وحسن الضيافة ، والميل إلى الحرية ، والانتقام بعنف لما قد ينالهم أو ينال أقاربهم أو أبناء قبيلتهم ، كانت أبرز فضائل العربى الوثنى . وكان ما أتى به الإسلام من إنكار الذات ، والصبر ، والعمل على صالح إخوته فى الدين بدلا من أبناء قبيلته ، والكف عن الفخر والمباهاة ، وغير ذلك مما حث الإسلام عليه ، كان يثير سخريته وإستهزاءه »[1] .

كانت المثل العليا الوثنية تتعارض تماما مع مثل الإسلام العليا . وقد سبق لنا الإشارة إلى العصبية القبلية من العصر الجاهلى فى بلاد العرب ، وكيف حلّ مكانه بظهور الإسلام الشعور بأخوة شاملة وسنتحدث عن الأحوال

(١) Browne : Lit. Hist. of persia, p. 50

الاجتماعية التى تعطينا معلومات كثيرة عن الأفكار الوثنية والتى ساعدت على انتصار الإسلام . ونظرة العرب الوثنيين إلى الحياة تبدو واضحة فى شعر العرب ، فهو يمثل سجلا دقيقا ، وهو خير معبر عن مشاعر العرب وعواطفهم .

ظل العربى الوثنى مختفيا وراء ستار رفيع من الإسلام ، فهو (لا يؤمن) بنهى محمد عن شرب الخمر ، التى يعتبرها العرب ينبوع الشرف ، والفضيلة ، والشجاعة ، والكرم . وقد عبّر امرؤ القيس عن أفكاره الوثنية فى أكثر من موضع فى قصائده ، فحث على شرب الخمر والتمتع بالنساء الجميلات اللاتى يشبهن الغزلان .

ذكر (جولد تسيهر) أن شرب الخمر حتى الثمالة كان ، حتى بين العرب الأتقياء ، أمر لا يدعو إلى كثير من الفخر . انتقد عربى عدوا له ، فعاب عليه أنه يشرب الخمر مرتين خلال النهار ، وأربعة مرات فى الليل حتى أصبح بدينا منتفخ الوجه . ثم امتدح نفسه بأنه لا يبذّر أمواله فى شرب الخمر . كان برّاد ابن قيس ، المتسبب فى حرب الفجار ، قد طردته قبيلته (بنو ضمرة) والتجأ إلى قبيلة أخرى يلتمس حمايتها ، لأنه استسلم لشرب الخمر والمجون . نرى أن هذه الأحداث الفردية لم تكن تنطبق على جميع العرب قبل الإسلام . فلا نتوقع أن العرب يكتفون بشرب نبيذ البلح المخفف ، ولا أن ينظروا إلى شرب الخمر

باعتباره أمراً مشينا ، فقد كانوا يبدأون مديحهم لأبطالهم فى الجاهلية فيتحدثون عن الكأس وما يحويه من خمر برّاقة .

قال عمرو بن كلثوم :

ترى اللحز الشحيح إذا أُمِرّت عليه لماله فيها مهينا

ونقرأ فى المبرد [١] :

إذا صدمتنى الكأس أبدت محاسنى ولم يخش ندمانى إذاتى ولا بخلى

ولست بفحاش عليه وإن أسأ وما شكل من آذى ندامأه من شغلى

لم ينجح العقاب الذى نصّ عليه الإسلام بتوقيعه على شارب الخمر ، من أن يمنع العرب ، وخاصة البدو ، عن شرب الخمر . فقد تمسك البدو ، رغم إسلامهم ، بالعادات الوثنية [٢] . وخير مثال لذلك تلك القصيدة التى أنشدها أبو محجن الثقفى [٣] فى مدح الخمر زمن عمر بن الخطاب .

أجاد طرفة تصوير الحياة اليومية لعربى العصر الجاهلى حينما قال :

---

(١) كتاب الكامل للمبرد ج ١ ص ٨٨ طبعة صبيح (المترجم)

(٢) كان سكان المدن والقرى ، بل من دخل فى الإسلام بعد من الأمم الأخرى أكثر تدينا ، وأعرف بأحكام الإسلام من كثير من سكان البادية . قال تعالى (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) . قال الطبرى تعليقا على هذه الآية : « الأعراب ، وهم من نزلوا بالبادية ، أشد جحودا لتوحيد الله ، وأشد نفاقا من أهل الحضر فى القرى والأمصار ، وإنما وصفهم جل ثناؤه بذلك لجفائهم ، وقسوة قلوبهم ، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير ، فهم لذلك أقسى قلوبا ، وأقل علما بحدود الله » (المترجم)

(٣) وهو الشاعر نصيب بن رباح (المترجم) .

وإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد

كانت الحرب والمسرات هى كل شىء ، ونهاية كل شىء فى حياة العرب. وقد عبّر طرفة عن هذه الفكرة فى بساطة وجمال فى هذه الأبيات :

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى؟

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

أغرق الرجال فى حياة المرح ، وتعودوا الحرية التامة فى كل ما يتعلق بملذاتهم ، وهى لا تتفق مع الحدود التى وضعها الرسول لمباهجهم . كان النهى من الخمر هو أحد التعاليم التى وضعها الرسول ، والتى لم يرض عنها العرب . ولم يستمر امتداح الخمر فى شعر العرب ، أو المسلمين عامة ، فحسب ، بل إننا نقرأ عن مجتمع يشرب الخمر ، بعد انتهاء عصر محمد ، فنجد من بين أبناء هذا المجتمع أناسا مثل ابن أبى أيوب الأنصارى ينظمون الشعر متغنين بالخمر .

يرى فريق من المسلمين ، أن النهى عن شرب الخمر ، واحد من التعاليم التى أنقذ الرسول بها المجتمع الإسلامى من الشرور التى تعانيها أوروبا الحديثة .

لم يكن العربى مغرما بالخمر فحسب ، بل كانت أخلاقه موضع شك كثير. كان العرب يسمون الخمر والحياة الجنسية (الأطيبان) . ولم يكن الإسلام يسمح بهذه الحرية المطلقة، وخير ما يمثل ذلك قصة الأعشى . يروى أن الأعشى

حينما تأهب ليقدم على الرسول ليبايعه على الإسلام ، تمكن أصحابه من أن يثنوه عن عزمه بأن أعلموه أن محمدا نهى عن التمتع بالأطيبين [١] .

كان السلوك الجنسى عند العربى فى العصر الجاهلى فى منتهى الانحطاط . قال (روبرتسون) [٢] : « فى بلاد العرب القديمة ، كانت العلاقات بين الزوج وزوجته مختلفة تماما ، فقد كان الزوج يسمح لآخر بمعاشرة زوجته لتنجب نسلا قويا ، وقد يقدم زوجته لضيفه ، مثلما كان يفعل بعض أهل عسير زمن الوهابيين ، وكما كان يفعل أهل (دهاهبان) كما روى ابن مجاور ، وكان الزوج إذا خرج للسفر فإنه يبحث عن صديق يحلّ محله كما كان يفعل بعض أهل اليمامة زمن (بركهاردت) ، وكان العربى أحيانا يرتبط برابطة الأبوة ، بما لها من حقوق ، مع رجل آخر ، مقابل خدمة أداها له كالرعى مثلا كما نقرأ فى كتاب فتوح الشام » [٣] .

---

(١) Goldziher , p. 27

(٢) Ropertson Smith : Kinsship and Marriage , p.139—140

(٣) من يتتبع أشعار العرب فى الجاهلية يجزم أن المرأة العربية كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية ، تشارك الرجل فى كثير من أعماله ، وكانت علاقتها بزوجها على درجة من الرقى أكثر مما يخيل إلينا ، يدلك على ذلك افتخار الرجل بنسبه لأمه كما يفخر بنسبه لأبيه ، وإعطاؤهم المرأة قسطها مما تحب من النسيب إذا بدأوا قصائدهم التى يفخرون بها بأمجاد القبيلة . وكان للعرب نظام ثابت فى الزواج ، فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات فى زواجهن . وينبغى ألا نخلط بين الزواج الشرعى وغيره مما كان معظم العرب يستنكره فقد عرفوا بالغيرة على الأهل ورعاية الشرف (المترجم)

ويبدو أن العرب لم يتبعوا حرفية تعاليم الرسول فيما يختص بالزواج والعلاقات الجنسية . وهناك حالات خولفت فيها شرائع الزواج فى فجر التاريخ الإسلامى ، ولكنها لم تبرز كما برزت فى عهد متأخر . ولنتحدث عن إحدى هذه الحالات التى حدثت فى القرن الخامس الهجرى . فإننا نقرأ عن (كرواش) ، الذى نعرف صراعه للدولة البويهية ، أنه تزوج من أختين فى وقت واحد وحينما انتقده البعض لمخالفته الشريعة الإسلامية ، قال : إلى أى حدّ تتفق أخلاقنا مع الشرائع الدينية ! ؟ [١] وإن كانت هناك مثل هذه الحالات فى القرن الخامس الهجرى التى سُمح فيها بمخالفة الشريعة دون عقاب فإننا لانعجب إذا علمنا أن بنى هذيل طلبوا من الرسول أن لايضع قيودا على حريتهم الجنسية . فى كل نواحى الحياة ، عمل الإسلام على تغيير الأوضاع إلى ماهو أحسن [٢] ، ولم يكن المسلمون فى فجر الإسلام غافلين عمّا أوجده الإسلام من إصلاح ، وقد سبق لنا أن ذكرنا الخطبة التى ألقاها جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى . وسنذكرها مرّة أخرى وهى : « أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام

(١) Goldziher, pp. 20—21

(٢) أنظر فصل (أثر الاسلام فى حياة العرب) ص ٣٨ ـ ٤٧ فى كتاب (الدولة العربية الإسلامية) تأليف مترجم هذا الكتاب .

ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » .

وكان جعفر على حق ، فقد علّم الإسلام العرب حياة نقية وسلوكا قويما ، وهذّب أفكارهم ونمّى عواطفهم ، وحبّب إليهم الخير وجعلهم يخافون الله . وبث فيهم الفضيلة والشجاعة التى جعلتهم يفتحون العالم ويصبحون مثلا عُليا للفروسية وعلّمهم الإسلام الحياة فى سلام والتفكير السليم ، كما يقول القرآن : ﴿ لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ (سورة ٢ ــ ١٧٧) .

كان التحول عن الإلحاد إلى التوحيد هو الإصلاح الدينى الذى أوجده الإسلام .

أصبح التاريخ الطبيعى للإلحاد ، كما يقول جون ستيوارت مل ، معروفا تماما الآن . إن عقيدة ما فوق الطبيعة ، هى عقيدة تفسر الطبيعة ، وهى تتمشى

بصفة عامة مع تقدم الأفكار الإنسانية والتى لا تزال فى حاجة إلى تفسير ، وكل خطوة نحو دراسة الطبيعة تحدث تغييرا فى النظريات [١] . ما زالت بداية ظهور إلحاد العرب سرًا غامضا . ولكننا لا نعتقد أن إلحادهم كان يختلف عن أى نوع من الالحاد عند الأمم الأخرى [٢] . وإذا نظرنا إلى تقدمهم العقلى نجد أن أفكارهم الدينية شاذة وبسيطة ، وإذا سلطنا عليهم أضواء التاريخ نجد لديهم نوعا من أحط أنواع الوثنية . ففى العصر الجاهلى ، لا نجد أى تعاليم جوهرية . ولكن ، رغم ذلك ، فإن الأحداث ، كما يقول (كرهل Krehl) ، لاتثبت إذا كان الشعب السامى الذى هاجر إلى بلاد العرب من الشمال الشرقى ، قد اعتنق العبادة التى وجدها فى البلاد . أم أدخل نوعا جديدا من العبادة انتشرت وتطورت تدريجيا بين العرب [٣] .

---

(١) Dissertations and Discussions, V. 11, p. 307

(٢) يرى بعض المؤرخين أن الوثنية تفرعت عن دين التوحيد الذى دعا إبراهيم إليه . فقد اعتنق معظم العرب دين إبراهيم ، فصاروا بعد بناء الكعبة يوحدون الله . ثم كثر أولاد إسماعيل واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار فى أرجاء الجزيرة العربية ، فكانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة يتبركون بها ويعظمونها تعظيمهم الكعبة ، ويستأذنون منها فى الإقامة والسفر . ثم صار العرب يشكلون هذه الأحجار بشكل الأصنام والأوثان ، واتخذت أشكالا مختلفة . وعلى هذا النحو استقرت الوثنية وقدست التماثيل والأصنام ، وقدمت لها القرابين ، ونسى العرب دين التوحيد ودعوة إبراهيم وهى الأصل (المترجم) .

(٣) Krehl : Die Religious der Vorislam ischen Araber, p. 5

ذكر ابن حزم فى (جمهرة الأنساب) [١] أن عمرو بن لحىّ كان أول من أحدث تغييرا فى دين ابراهيم ودعا إلى عبادة الأوثان [٢] .

وسواء أكان العرب عرفوا التوحيد أم لم يعرفوه ، فإننا لانستطيع الجزم بشىء . ومن الواضح ، أن فكرة وجود إله حقيقى ، لتحقيق الحاجات الدينية ، كانت مفقودة بينهم ، وآمنوا بإله يعتبر غريبا على هذا العالم . ثم بحثوا عن إله فى الطبيعة وبين الظواهر الجغرافية ، ورأوا أن الله يتخذ صورة ظاهرة طبيعية [٣] . ويرى ساكن الصحراء أن الطبيعة لم تمنح سوى ظواهر محدودة ، وهى تؤثر فى قوة على عقله حتى إنه يقدم على عبادتها باعتبارها أنها أدلة وبراهين على وجود الله . ولم يكن هناك ما يجذب العرب أكثر من النجوم التى أصبحت رمزا لجلالة الإله وخلوده [٤] .

---

(١) طبعة Bankipore

(٢) لما ساد عمرو بن لحى الخزاعى قومه بمكة وأصبحت له السيادة على الكعبة ، سار الى مدينة البلقاء بالشام على أثر مرض أصابه ، فرأى أهلها يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ماهذه الأوثان التى أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها ، نستنصرها فننصر ، ونستسقى بها فنسقى فقال : ألا تعطوننى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذى تفد إليه العرب ، فأعطوه صنما ، يقال له هبل ، فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة — (المترجم) .

(٣) كان العربى أكثر الناس فى تلك الأيام خضوعا وتأثرا بالطبيعة ، لتأخر حضارته ، وقسوة الطبيعة — (المترجم) .

(٤) كان العربى فى العصر الجاهلى محتاجا إلى النجوم دائما لهدايته فى الليل فى تلك الصحراء الواسعة القاحلة الموحشة (المترجم) .

فى مساحة واسعة من آسيا ، تمتد من حدود فارس إلى حدود مصر ، انتشرت عبادة النجوم . ومن العسير أن نجزم إذا كانت هذه العبادة قامت فى بلاد العرب أو إقليم الجزيرة [١] .

يرى كل من الشهرستانى والدمشقى أن عبادة النجوم سادت بلاد العرب . ذكر الدمشقى أن العرب اعتنقوا أخيرا عقيدة الصابئة ، وأن الحميريين عبدوا الشمس (أنظر تاريخ الملكة بلقيس فى سورة ٢٧ ـ ٢٣ التى تثبت أنها وشعبها عبدوا الشمس) [٢] ، وحدث أن بعض القبائل ، مثل قبيلة كنانة التى كانت تعبد القمر ، أن اعتنقت اليهودية . وعبدت قبائل لخم وجذام المشترى ، وعبدت أسد عطارد ، وعبدت طسم الزهرة ، وعبدت قيس الشعرى [٣] وكذا طى سهيل [٤] . وإلى جانب عبادة النجوم ، انتشر بين العرب أنواع عديدة من العقائد ، وإننا ندين للشهر ستانى إذ أعطانا قائمة بعقائد العرب . ذكر الشهر ستانى [٥] أن عرب ماقبل الإسلام ينقسمون إلى مجموعات مختلفة ،

---

(١) عبد أهل الحيرة القمر ، وشاعت فى بلاد اليمن عبادة الشمس (المترجم) .

(٢) جاء فى القرآن الكريم : (إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون) ـ (المترجم) .

(٣) كان بمكة رجل يسمى (أبو كبشة) عبد نجما اسمه الشعرى ودعا قريشا إلى عبادته وذاعت هذه العبادة بين بعض القبائل (المترجم) .

(٤) أنظر (Krehl , p. 8) ـ (المؤلف) .

(٥) L'histoire de l' Islamisme , p. 11

بعضهم ينـكر وجود الخالق ويوم القيامة ، ويرون أن الطبيعة تملك قوة منح الحياة ، كما أنها بمرور الأحقاب تحطم جميع المخلوقات . وهناك من العرب من يؤمنون بوجود خالق وخلق ولـكنهم لا يؤمنون بيوم القيامة والبعث . وهناك فئة تؤمن بالخلق والخالق وبنوع من البعث ولـكنها لا تؤمن بالأنبياء وتعبد الأوثان التى يظنون أنها الواسطة بينهم وبين الله ، فيحجون إليها ويقدمون لها الأضحيات والهدايا المقدسة ، وكانت هـذه عقيدة معظم العرب . وكان البعض يؤمنون بتقمص الروح ، ويعتقدون أنه بعد الوفاة تمتزج دماء المخ بجزء من الجسم ، وينتج عن هـذا الإمتزاج طائر يعود إلى القبر كل مائة سنة . ويتفق العرب على أن ذرية إبراهيم ، فى بداية الأمر ، كانوا يؤمنون بعقيدة التوحيد مثلهم مثـل إبراهيم نفسه ، أما التحول عن دين ابراهيم فيرون أنه بتحريض من الشيطان .

كان العرب ، كما يبـدو ، يقدسون آلهتهم ، فيحجون إلى أماكنها المقدسة ، ويقدمون الأضحيات فى معابدها ويخضبون بدماء هذه الأضحيات الهياكل المصنوعة من الأحجار أو الخشب ، ويستجيرون بكهنتها فى وقت الشدة ويسألونهم عما يخبئه المستقبل . ولـكن كان ذلك كله تظاهرا وتصنعا ، فلم يـكن هناك شعور بإيمان حقيقى ، ولـكن ــ كما يقول دوزى ــ كان العربى يبدى غضبه ، لأقل شىء ، على الآلهة ويخاطبهم وكأنه يعرف حقيقتهم ،

فيسخر منهم . وهـذه الحقائق توضح أن عرب ماقبل الإسلام كانوا فى حالة قلق دينى قبل ظهور الإسـلام ، فقد كانوا غير راضين عن نظامهم الدينى وعاجزين عن الوصول إلى ماهو أحسن بحيث يرضى حاجاتهم ومطالبهم ، وكانوا فى اختلافات دينية . كانوا يمارسون الأوثان ، ولـكن بدون شعور بإيمان حقيقى . وكان وجود المسيحية واليهودية يبرز حالة القلق الدينى، وأدت إلى تحويل أفـكارهم من الوثنية إلى أفـكار أسمى . امتدت المسيحية إلى بلاد العرب عن طريقين : أولهما من الجنوب من الحبشة ، والآخر من الشمال ، مما أدى إلى انتشارها فى اليمن ، وأصبحت نجران مدينـة مسيحية فى عصر مبكر . وكانت شبه جزيرة سيناء تحفل بعدد كبير من الأديرة والـكنائس ، كما اعتنق عرب سوريا المسيحية [1] .

ورغم هـذا كله ، فشلت المسيحية فى أن تمد جذورها بين العرب ، فلم يتأثر وسط الجزيرة العربية بالمسيحية . وخلاصة القول ، كما يقول دوزى ، لم

---

(١) دخلت المسيحية بلاد العرب ، فانتشرت بين الغساسنة لأن بها معظم أهالى الحيرة . وكان للمسيحية أتباع كثيرون فى جنوبى الجزيرة العربية نتيجة جهود الإرساليات فى عهد الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٥٦ م ، ونتيجة تنافس الفرس والروم حول النفوذ . وكانت نجران مركز المسيحية ، وكانت بعض بطون قريش تعتنق المسيحية مثل بنى أسد بن عبد العزى ، كما اعتنق المسيحية بنو امرىء القيس بن زيد مناة من تميم ، وبنو تغلب من ربيعة وبعض قبائل قضاعه : (المترجم) .

تستطع المسيحية بما فيها من تقاليد وعقيدة التثليث وعقيدة صلب المسيح ، أن تجذب انتباه العرب أو أفكارهم [١] . ويمكننا أن نذكر تلك الفترة التى قصد فيها أسقف ، حوالى سنة ٥١٣ م ، إلى المنذر الثالث ملك الحيرة ليبشره بالمسيحية . واستمع الملك إلى الأسقف باهتمام ، ولكن دخل عليه أحد ضباطه فهمس فى أذنيه ببعض الكلمات ، وفجأة هبّ الملك واقفا وقد بدا عليه الحزن ، فلما استفسر الأسقف عن سبب ألمه ، أجاب أنه قد سمع بأنباء محزنة ، فقد مات رئيس الملائكة — ميكائيل ، فأجاب القسيس إن ذلك من المحال ، فقد خدعوه ، إذ أن الملائكة لايموتون [٢] .

جذبت اليهودية العرب أكثر من المسيحية ، فقد هاجر عدد كبير من اليهود بعد إخماد الثورة التى قامت فى وجه الإمبراطور هادريان ، ملتجئين إلى جزيرة العرب . واختلطت كثير من القبائل العربية بهم وأعتنقوا ديانتهم ، وكانت هذه القبائل أكثر القبائل إخلاصا لهذه العقيدة . وكانت اليهودية

(١) لم تنتشر المسيحية انتشاراً واسعاً كما كنا نتوقع ، رغم أنها ديانة سماوية تدعو إلى مبادىء سامية ، وهى بمنهجها أفضل من الديانات السائدة بين العرب كالوثنية وعبادة النجوم والكواكب . ونحن نفسر ذلك بعدة تفسيرات ، أولها اقتران المسيحية بالنفوذ الأجنبى الاستعمارى ، الرومانى والحبشى ، فقد عمل الروم والأحباش على نشر المسيحية كوسيلة لتدعيم نفوذهم السياسى والاقتصادى ، ومن الأسباب أيضاً أن العقائد المسيحية بالنسبة للعربى معقدة لايستطيع فهمها بسهولة ، كما أنها تقيد حريته وهو يقدس الحرية قبل كل شىء ، إلى جانب تعدد المذاهب المسيحية والصراع العنيف بينها (المترجم) .

(٢) L' histoire de l' Islamisme, pp. 13—14

لفترة ماهى الدين السائد فى اليمن . ولـكن اليهود لم تشبع رغباتهم ، وظلوا يتطلعون إلى عقيدة أسمى [١] .

كان البدو ، كما هم دائما ، ـ يعيشون حياة شاذة ، فهم دائمـا يشذون عن القواعد العامة . كان تأثير اليهودية والمسيحية واضحا على العرب المتحضرين ، فقدفتحت آفاقا جديدة من التفكير ، ونجد آثار ذلك واضحة فى ظهور عقيدة توحيد الله ، ويقظةالضمير ، والشعور بالمسئولية ، وصحب ذلك ظهورالتصرفات الإنسانية التى صوّرها الشعر فى القرن السادس ، وسُمّى هؤلاء المفـكرون (الحنفاء) ، ولـكنهم لم ينتظموا فى طائفة ولم يرتبطوا برباط واحـد ، ولم يشتركوا فى عبادة واحدةمعينة ثم ظهر الصابئةالذين كانوا يسمون أيضا بالحنفاء . نبذ هـذان النوعان من الحنفاء اليهودية والمسيحية وآمنوا بدين إبراهيم [٢] .

(١) انتشرت اليهودية فى خيبر ويثرب ووادى القرى وفدك وتيماء وهى أحسن واحات غربى الجزيرةالعربية ، كما انتشرت فى اليمن على يد أسعد أبوكرب أحدملوك حمير ،وانتشرت أيضا فى بنى كنانة وبنى الحارث بن كعب نشر اليهود تعاليم التوراة من بعث وحساب ، وأدخلوا على اللغة العربية كثيراً من المصطلحات الدينية . ولـكن اليهودية لم تلق النجاح المنتظر لدين سماوى أسمى من الوثنية لعدة أسباب : اليهودية دين غير عالمى واعتبر اليهود أنفسهم شعب الله المختار وعملوا على أن يـكون دينهم مقفلا ، وكان القانون التلمودى معقداً فعجز العرب عن فهمه ، كما أن اليهود احتكروا الموارد الاقتصادية فحقد العرب عليهم ، واقترنت اليهودية بالنفوذ الفارسى وهو نفوذ أجنبى ـ (المترجم) .

(٢) على الرغم من أن اليهودية والمسيحية لم تنتشرا على نطاق واسع ، فقد أثرتا فى الوثنية العربية ، فظهر أفرادمستنيرون شكوا فى الوثنية فتركوها وتهود وتنصر البعض ، واكتفى فريق ثالث بفعل الخير ودعوا إلى إحياء دين إبراهيم مثل ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل ـ (المترجم) .

وكانت تعاليمهم بسيطة ، فطرية ، تتفق مع سلوك العرب . ولتصبح الحنيفية دين العرب ، كانت فى حاجة إلى تعاليم محــددة ، وتنظيم قوى ، وطقوس دينية ، وكتاب سماوى ، ولمّا كانت الحنيفية يعوزها الأسس السماوية ، التى تجذب الإنسان ، فإنها لم تتمكن من الانتشار بحيث تصبح دين العرب (١) .

ولــكن للحنيفية أهميتها فى تاريخ الأديان . فقد جعلها محمــد أساسا لدعوته ، وكانت من الدعائم التى قامت عليها دعوة الإســلام (٢) . كان على محمـد أن يكمّل ماينقص الحنيفية ، ولــكن هذا العمل كان شديد الصعوبة ، فقد كان العرب لايدركون مدى حاجتهم إلى دين ، بل عبّروا عن كراهيتهم للطقوس الدينية والفلسفات الغامضة . ولحلّ هــذه المشكلة ، كان لابدّ من وجود عقيدة قوية لايمكن نقضها .

---

(١) كان كعب بن لؤى بن غالب ، أحد الحنفاء ، وأحد أجداد محمد ، يجمع قريشاً ويطالب منهم التفكير فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، ويذكرهم بالموت وأهواله واليوم الموعود وأحواله ، ويبشرهم بظهور نبي . قال تعالى (قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) ، لــكن الحنيفية لم تنتشر لأنها لم تعتمد على نبي وكتاب سماوى (المترجم) .

(٢) لا شك أن الحنيفية مهدت أذهان العرب لقبول الإسلام باعتبارها دين توحيد ، وإبراهيم هو أبو الأنبياء ، وكان محمد قبل نزول الوحى يؤمن بالحنيفية ويبتعد عن العادات الجاهلية ويتعبد فى غار حراء ، ولــكن ــ رغم ذلك ــ لانقول بأن الحنيفية كانت أساساً للاسلام (المترجم) .

وخلاصة القول ، منح الإسلام العرب عقيدة التوحيد فى أنقى صورها ، غير متأثرة بغيرها ، وأشعرهم بمسئوليات الحياة ، وقضى على الفساد الاجتماعى من جذوره ، وحطم حياتهم الانعزالية وجعلهم رسل الحضارة . ولا نجد مايعبّر عن هذا البحث خيرا مما قاله الأستاذ براون :

« لقد رأينا فى موقعة ذى قار ، علامات تدل على حيوية العرب العظيمة وشدة بأسهم — بينما كان جيرانهم ينظرون إليهم على أنهم كميات مهملة — بشكل غير مألوف فى عصر ماقبل الإسلام . أما الإسلام ، ذلك القانون الإلهى الفريد ، الذى لايستطيع متعلم منصف أن ينكرون عظمته . فقد جعل العرب يأخذون نصيبا كبيرا ، ويلعبون دورهم فى الحضارة .

وللحكم على النبى العربى ، فإن النقاد الغربيين غالبا مايجهلون الأحوال التى أنقذ منها بلده ، ويتذكرون فقط بعض الأوضاع كالرق وتعدد الزوجات التى ينتقدونها ، والتى سمح الإسلام بها » .

الإسلام فى نظر المسيحيين فى العصور الوسطى

حينما ندرس العلاقات الطيبة التى قامت بين المسلمين والمسيحيين خلال العصور الوسطى ، نجـد ذلك عسيرا ، فإن معظم كتابات المسيحيين توصف بالتعصب الأعمى . ولـكن الدراسة المتعمقة ، وتحرّى الحقيقة ، سيزيل أسباب العداء الظاهرى .

فى الصفحات القادمة ، ندرس العلاقات الاجتماعية التى قامت بين العرب والبيزنطيين ، ومدى تأثير الإسـلام والمسيحية كل منهما على الآخر . كانت سياسة الأمويين السلمية المعتدلة تقوم على أساس تخفيف حـدة التوتر وتنمية العلاقات الطيبة . ولـكن يبدو ، فى نفس الوقت ، أن الإسـلام ظل غير معروف لمعظم أبناء المجتمع المسيحى ، كما ظل محمد فى الأدب الأوربى ، إلى العصور الحديثة ، شخصية غامضة . ويمكننا أن ننسب هـذا الجهل بالإسـلام و بمحمد إلى قلة الفرص المتاحة للمسيحيين لدراسة حياة الرسول أو عقيدته ، إذ أن علاقات البيزنطيين فى ذلك الحين بالمسلمين كانت محدودة ، وإن كانوا يعيشون متجاورين فى سلام . ولـكن منذ النصف الأول من القرن الثانى عشر بدأت ترجمة معظم كتب العرب ، فى الفلسفة ، والطب والفلك ، والرياضيات ، إلى

اللغة اللاتينية . وهـذا يدل على أن كثيرا من المسيحيين أصبحوا يجيـدون اللغة العربية . وفى مقدمة أسماء هؤلاء الرجال نجد اسم (رايموند Raymond) رئيس أساقفة توليـدو ، وحاكم مدينة كاستيل (١١٣٠ – ١١٥٠) الذى شكّل هيئة من المترجمين، تولى رئاستها وتمّاها (Dominican Gondeslavi) وإلى جانب الدولة البيزنطية ، فقد اتصلت أوربا بالمسلمين عن طريق أسبانيا وخاصة مدينة توليدو ، وعن طريق صقلية ومملـكة نابلى . ورغم أنه كان من السهل أن يعلم المسيحيون الـكثير عن الإسـلام ، إلاّ أنهم ظلوا طوال العصور الوسطى يجهلون كل شىء عنه ، بل جهلوا اسم (محمد) فنراه فى أدب العصور الوسطى يـكتب (Mophomet) أو (Baphomet) أو (Bofum) . بل ظل المسيحيون قرونا يعتقدون أن محمـدا هو إله المسلمين . ويأخذنا الحديث بعيدا إذا أردنا أن نذكر آراء المسيحيين حول محمد ، ويـكفى أن نشير إلى القصة الخرافية التى تدور حول وجود وثن ذهبى يسمى (Mahom) ويعتبر أعداء الإسلام أنه يمثل رسول الله . وإن كان بعض الـكتاب مثل (Nicoldus) من (مونت كريستو) ، والأسقف (وليـام) من طرابلس ، قد أنصفوا محمـدا ، إلاّ أن معظم كتّاب العصور الوسطى قد ارتـكبوا كثيرا من الأخطاء حينما تعرّضوا لشرح مبادئ الإسلام .

مـما يثـير دهشتنا ، قراءتنـا لمـا كتبه قس أسبانى مثقف يدعى

(Eulogius of Cordova) عن محمـد . فقد ذكر أن الرسول قد أخـبر صحابته أن الملائـكة ترفعه إلى السماء بعد وفاته بأيام ثلاثة . ولـكن ، لاحظ مدى ثقافة هذا القس وأدبه حـين يقول : « ورغم ذلك فقـد التهمت الـكلاب جثمانه العفن » . ومما يزيد من جرم هذا الأليوجس أنه عاش فترة طويلة بين المسلمين ، وتهيأت له كثير من الفرص للوصول إلى الحقيقة التى زعم أنه يريد الوصول إليها . ولـكنه اعترف ، بـكل بساطة ، أن كل معلوماته مستمدة من مخطوط لاتينى وقع فى يده صدفة فى مدينـة (بامبيلونا Pampelona) .

ولنبحث الآن عن الأسباب التى أدت إلى جهل المسيحيين فى العصور الوسطى بالإسـلام والرسول . نرى أن ذلك الجهل نتيجة أسباب متنوعة ، ولـكننا نرى أن العامل الرئيسى هو سيطرة الـكنيسة على أهالى العصور المظلمة ، وأدّى انتشار الإسلام وقوته إلى شعور أوربا بالخطر ، وظن البعض أن الإسـلام قد أصبح خطرا على المسيحية . وكان هـذا الشعور بالخطر هو الشرارة التى أشعلت النيران،و بدأت الـكنيسة الـكاثوليـكية نشاطها المعادى للإسلام . وكانت الـكنيسة فى بداية الأمر ، تظن أن انتصار الإسلام ماهو إلاّ سحابة عن قريب تنقشع ، ولـكنها سرعان ماأدركت أن انتصاره كان كاملا مطلقا .

وبمرور السنين ، زاد خطر المسلمين على الدول المسيحية ، وبدأ المسيحيون يبحثون حولهم عن قوة تستطيع أن تساعدهم لوقف هـذا الزحف المستمر للإسلام .

شرح (رانكى Ranke) ، بماله من موهبة فى التحليل التاريخى ، حقيقة الموقف ، فقال : « يجب علينا ألا ننظر إلى انتشار المسيحية فى ألمانيا من وجهة نظر الدين أو التعليم ، بل على اعتبار أنه حدث يؤثر فى تاريخ العالم ، فهو يؤدى إلى حشد القوى فى قارة أوروبا لمواجهة الإسلام . لقد أدرك (Boniface) جيدًا ماذا حدث فى أسبانيا ، ولذا فإن عملية التنصير التى كان يقوم بهـا منعت التاريخ من أن يعيد نفسه فى ألمانيا وبلاد الغال [(١)] » . نهضت الكنيسة لتواجه تهديد الإسلام للمسيحية ، فلم تعـد تتبع سياسة اللين والتسامح . وإذا أدركنا مدى سيطرة الكنيسة ونفوذها على مسيحيى العصور الوسطى ، وتأثيرها على أدب هذه العصور ، فإننا لن ندهش إذا لمسنا ما نال الإسلام طوال العصور الوسطى من هجوم وقدح ، وذلك نتيجة منطقية للظروف السائدة فى تلك العصور .

ومن سوء الحظ أيضا ، أن أقطار غرب أوروبا كانت معلوماتها الأوليـة

---

(١) Ranke, Weltgesch ichte , Vol. V , part 1,pp.286—287,
Guizot, History of civilization , Vol. II , p. 175

عن الإسلام ، عن طريق مصادر غـير صادقة ، وهى المصادر البيزنطية . فقد نظر البيزنطيون إلى الإسـلام نظرة عداء ، وهـذا العداء يبدو منطقيا إذا تذكرنا أن المسلمين قد انتزعوا من الدولة الرومانية الشرقية [١] أحسن ولاياتها ، كما أن الإسلام الذى يدعو إلى التوحيد يعارض عقيدة البيزنطيين التى تدعو إلى التثليث . ولذا لاغرو أن اعتبر البيزنطيون الإسـلام خطرا على عقيدتهم . ولـكن الدولة البيزنطية كانت تعـانى من الضعف السياسى ماجعلها عاجزة عن الوقوف فى وجه المسلمين ، فوجهت كل همها إلى تجريح عقيدتهم . ولـكن حينما ظهر الأتراك بمظهر حماة الإسلام ، بعـد سقوط الخلافة فى بغداد ، بدأ دور جديد من صراع الإسلام والمسيحية .أما الـكنيسة الغربية [٢] ، فقد دفعها حرصها على انتشار العقيدة الـكاثوليـكية ، لاخوفها وغيرتها على الدولة البيزنطية ، إلى تنظيم حملات صليبية للانتقام من الأتراك لما اقترفوه ضدّ المسيحيين ، وكان غرض هذه الحمـلات الحقيقى مقاومة قوة الإسلام المتزايدة . ومنذ أيام جريجورى السابع ، أخذت السياسة التى تقضى بوقوف أوربا فى وجه الشرق و إدخال الـكفار تحت لواء الـكنيسة ، تحتضر فى هدوء . فقـد خابت آمال جريجورى نتيجة خلافاته مع رجال الـكنيسة .

---

(٢) أى الدولة البيزنطية (المترجم) .

(٣) أى الـكنيسة الـكاثوليكية فى روما (المترجم) .

ومما يذكر أيضا أن (أربان الثانى Urban II) ظل ينادى دائما بهذه الفكرة الخطيرة ويدعو إلى فتح الأرض المقدسة . ومن أجل أن تحتفظ الكنيسة دائما بقوات على استعداد دائم للقتال ، فإنها حرصت على إلقاء الظلال القاتمة على الإسلام والمسلمين . وسرعان مازادت الاتهامات ، ولم تكن الصورة المشوهة التى رسمها (ثيوفانس Theophanes) لمحمد تقنع القسس المسيحيين المتعصبين ، بل زادوها تشويها . وظل المسلمون يُتهمون دائما بأنهم انتهكوا حرمة المقدّسات المسيحية . وحرص رجال الدين على إثارة مشاعر أوربا حتى تظل الروح الصليبية حيّة ، فتستمر الحرب بين الإسلام والمسيحية . وهناك حادثة صغيرة ذكرها (رايموند) ليصوّر بها مدى عداء المسيحيين للمسلمين . قال رايموند : « وحدث شيء سار خفّف مالاقوه من مشاق . فإن فرقة من الفرسان المسلمين يزيد عدد أفرادها عن ثلثمائة طاردهم الصليبيون حتى سقطوا فى هاوية سحيقة ، ولم يعكر صفو هذه الفرحة سوى خسارة هذه الخيول [1] » .

قبل أن ننتقل إلى الحديث عن محمد ، كما يصوره كتّاب العصور الوسطى ، نجد أنه من الطريف أن نذكر روايات عربية حول (بحيرى) ، وهى الروايات التى يشوهها كتّاب العصور الوسطى ليسخروا من الرسول . جاء فى

(١) Sybel, History and Literature of the Crusades, p. 144.

كتاب (أسباب النزول) للواحـدى ، أنه حينما كان أبو بـكر فى العشرين وكان محمـد فى الثامنة عشرة من عمرهما ، خرج الصديقان فى رحلة تجارية إلى سوريا . وفى طريقهما ، وقفا عند إحـدى المحطات ، فجلس محمـد فى ظل شجرة ، بينما قصد أبو بـكر راهبا ليسأله عن الدين الحق ، فسأله الراهب عمّن يكون ذلك الرجل الجالس تحت الشجرة ، فأخبره أنه محمد بن عبد الله ، فأقسم الراهب أنه سيكون رسولا لله ، إذ لم يجلس تحت هذه الشجرة بعـد المسيح غير محمـد . وكان لهـذا الحديث أثر كبير فى نفس أبى بكر فقد اقتنع بصدقه ولازم محمداطوال رحلته إلى الوطن .

هــذه الرواية نجدها أيضا فى (المواهب) و (الحلبى) ، كما رواها ابن عباس ، الذى روى كثيرا من الأحاديث الموضوعة ، والذى توفى سنة ٦٨ هـ . كما ذكر أصحاب هذه الرواية.

فى هذه المؤلفات الثلاثة التى وُضعت فى زمن متأخر ، جاء ذكر الراهب تحت اسم (بحيرى) ، وهى توضح الإضافات الـكثيرة التى أضيفت إلى هذه الأسطورة ، وإننا ننظر دائما بعين الشك إلى أصل وأسس مايذكره كتّاب العصور الوسطى عن محمد وذلك الراهب . فـكل منهم قد روى القصة بطريقة تخالف الآخر . ولنرى الآن رواية ابن إسحق (١) :

(١) Das Leben Moh. , Vol. 1, pp. 86—88 ـ سيرة ابن إسحاق كما جاءت فى سيرة ابن هشام .

« ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجرا إلى الشام ، فلمّا تهيأ للرحيل وأجمع المسير صبّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما يزعمون — فرقّ له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معى ، ولا يفارقنى ، ولا أفارقه أبدا ، أو كما قال . فخرج به معه ، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له ، وكان إليه عِلْم أهل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب إليه يصير علمهم عن كتاب فيها . فيما يزعمون ، يتوارثونه كابرا عن كابر . فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ، وكانوا كثيرا مايمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام . فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيرا ، وذلك فيما يزعمون عن شىء رآه وهو فى صومعته . يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى صومعته ، فى الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم . قال : ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه . فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصّرت أغصان الشجرة على الرسول صلىّ الله عليه وسلم حتى استظل تحتها ، فلّما رأى ذلك بحيرى نزل فى صومعته ، ثم أرسل إليهم ، فقال له : إنى قد صنعت لكم طعاما يامعشر قريش ، فأنا أحبّ أن تحضروا كلكم ، صغيركم وكبيركم وعبدكم وحرّكم ، فقال رجل منهم : والله يابحيرى إن لك شأنا اليوم ! فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنّا نمرّ بك كثيرا ، فما شأنك اليوم ؟ قال له

بحيرى : صدقت ، قد كان ماتقول ، ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم . فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم ، لحداثة سنه ، فى رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى فى القوم لم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده ، فقال : يامعشر قريش ، لايتخلفن أحد منكم عن طعامى ، قالوا له : يابحيرى ، ماتخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنّا ، فتخلّف فى رحالهم ، فقال : لاتفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم . قال : فقال رجل من قريش مع القوم ، واللات والعزى ، إن كان للوم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم . فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظة شديدة وينظر إلى أشياء من جسده ، فقد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرى ، فقال له : ياغلام ، أسألك بحق اللات والعزى إلاّ ماأخبرتنى عمّا أسألك عنه ، وإنما قال له بحيرى ذلك ، لأنه سمع قومه يحلفون بهما . فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لاتسألنى باللات والعزى ، فوالله ماأبغضت شيئا قط بغضهما ، فقال له بحيرى : فبالله إلا ماأخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له سلنى عمّا بدا لك . فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ماعند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

قال ابن هشام : وكان مثل أثر المحجم .

قال ابن إسحق: فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب ، فقال له: ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا ، قال : فإنه ابن أخى ، قال فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به ، قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنّه شرًا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده » [1]

أما الطبرى ، فقد ذكر أن الرسول كان فى التاسعة من عمره حينما التقى بالراهب بحيرى ، ولكن الطبرى يذكر أن بحيرى حذر أبا طالب من الرومان لا من اليهود كما ذكر ابن إسحق .

أما المسعودى (٩٠٠ — ٩٥٦ م) فقد روى القصة كما يلى : « وفى خروجه عليه السلام مع عمه فى هذه السنة [2] ، نظر إليه بحيرى الراهب وأوصاهم بمراعاته من اليهود فإنهم أعداؤه لعلمهم بما يكون من نبوته » [3] .

أما ابن الأثير فقد روى القصة كما رواها الطبرى . ولكن القصة بأكلها

---

(١) رجعنا إلى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٩١ ـ ١٩٤ (طبعة الحلبى ١٣٥٥ هـ تحقيق الأستاذ السقا والأستاذ الأبيارى) يذكر بعض المؤرخين أن الراهب اسمه سرجيوس بينما يسميه البعض بحيرى ، وتؤكد بعض المراجع العربية أن الاسمين لاثنين من الرهبان وقد تبادلا الحديث مع محمد (انظر حياة محمد تأليف ارفنج وترجمة مترجم هذا الكتاب) (المترجم) .

(٢) السنة التاسعة من عمر الرسول كما ذكر المسعودى (المترجم) .

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٣ المطبعة التجارية سنة ١٩٤٨ (المترجم)

ليست حقيقية بل موضوعة ، وهى من صنع خيال ابن عباس الخصب ، وربما تكون قد دوّنت حوالى سنة ١٠٠ هـ ، ولـكن يبدوأن الناس قد تناقلت روايتها شفاها قبل ذلك بنصف قرن . ونلاحظ أن الروايات الأولى لم تذكر اسم الراهب ، ثم انتقلت الروايات إلى مرحلة ثانية حينما اختارت للراهب اسما ، ثم اتخذت الروايات لونا جديداً حينما أضافت أن الراهب قد اكتشف علامات النبوة فى محمد . ومعظم الروايات تذكر أن الراهب حذّر أبا طالب من اليهود ، ولـكن بعض الروايات تذكر أنه حذّره من المسيحيين [1] . ويبدو أنه من الممتع أن نقارن بين الروايات العربية وما كتبه كتّاب العصور الوسطى عن هذه الأسطورة .

ننتقل إلى كتّاب العصور الوسطى [2] ، ويبدو أن وجهة نظرهم لا تذهب إلى أن محمدا نبى كاذب وشاب ماجن فحسب ، بل رجل مخادع مخرّب ، قاد نفوسا ضعيفة بعيدا عن جادة الصواب بعد أن منّاهم بكثير من المتع معظمها متع شهوانية . ومعظم هذه الاتهامات ترجع إلى البيزنطيين الذين حرصوا على تشويه الإسلام . ورغم حرصهم على اتهام الإسلام باتهامات باطلة إلاّ أنهم لم

---

(١) يقال أن بحيرى كان فى الأصل يهوديا ، ويبدو أن هذا يفسر أن الروايات تخليه اسمين ، فكان اسمه (بحيرى) حينما كان يهوديا ، حتى إذا اعتنق المسيحية أصبح اسمه (جورجيوس Georgius) التى تحرف فى اللغة العربية إلى (سركيس Sarjis) أنظر Weil, Moh. der prophet, p. 29 note 15.

(٢) خلال تدوينى هذه السطور أحتفظ بجانبي بكتاب للمؤلف Prutz وهو :
(Kaltargeschichte der kreuzzuge constantly)

يستطيعوا أن ينكروا وجود بعض للمواضيع التى يتفق فيها الإسلام مع المسيحية . وليفسروا هذا التشابه بين العقيدتين زعموا أن محمدا ولد مسيحيًا .
ولننتقل إلى ما كتبه (ثيوفانس Theophanes) باعتباره أنه من أوائل المسيحيين الذين كتبوا عن الإسلام ، وكانت كتاباته عماد (أنستاسيوس) فيما كتبه عن تاريخ الكنيسة . ذكر المؤلف كل الأساطير التى تناقلها أهل العصور الوسطى حول محمد ، وامتزجت الحقائق التاريخية بالأكاذيب . فنقرأ فيما كتبه حديثه عن فقر محمد ثم زواجه من خديجة ، ثم رحلاته للتجارة وهى كلها حقائق تاريخية حقيقية ، ولكن المؤلف مايلبث أن يذكر أن محمدا درس اليهودية والمسيحية من خلال كتابيهما المقدسين ، ثم يزعم أن محمداً قد ابتكر قصة نزول جبريل عليه بالوحى ليخفف من قلق خديجة عليه نتيجة نوبات الصرع التى كانت تنتابه دائما . أما (ثيوفانس) فيذهب فى افتراءاته بعيدا ، فيزعم أن خديجة كانت تعشق راهبا طردته الكنيسة لهرطقته ، وزعم أن هذا الراهب أيد ما ذهب إليه محمد من نزول الوحى عليه وقدم له المساعدة [1] .
وغنى عن البيان أن الكتب التى ترجع إلى القرن الحادى عشر وتناولت الإسلام ، قد حفلت بالاتهامات والشتائم وكلها تتصف بالتهور والافتراءات الغريبة التى تدل على تفكير سقيم ، ولم تبذل محاولة جدية لفهم الإسلام أو دراسة حياة محمد . ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال مؤلفا معاصرا لتلك

(١) ربما يقصد ثيوفانس هذا ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة (المترجم) .

الفترة وهو (رايموند) أسقف (توليدو) الذى ترجم بعض المؤلفات العربية التى تتناول الفلسفة . ونذكر أيضا (بيتر Peter) المعروف باسم (Venerable of Clumi) الذىقام بمحاولات لترجمة القرآن وبعض المؤلفات الدينية .

أما بيتر المعروف باسم (Peter the Venerable) البطل المسيحى الكبير ، فقد حمل لواء حملة نشيطة ضد الإسلام ولام المسيحيين على مهادنة الإسلام ، ووضع خطة لمحاربته . ويرى أن تكون نقطة بداية هذه الحرب هى القرآن ، ولهذا السبب تُرجم القرآن إلى اللاتينية . وتاريخ أول ترجمة يدعو إلى الحديث عنها ، إذ أنه لا يجوز أن نصفها بأنها (ترجمة) على أى حال من الأحوال ، فإن (روبرت) ، الذى تولى أمر الترجمة ، لم يقم بترجمة القرآن حرفيا ، بل « قام بترجمة بعض المعانى العربية بقدر ما استطاع »[1] . أما عن تاريخ حياة (روبرت) هذا فلم يتناولها سوى مؤلف واحد هو (ليلاند Leland) . بل إن (ليلاند) هذا لم يذكر لنا المصادر التى استمد منها معلوماته . وروبرت هذا رجل إنجليزى ، يقال إنه قام برحلات إلى فرنسا وإيطاليا والبلقان واليونان ، ورحل إلى آسيا حيث تعلم اللغة العربية . وفى حوالى يوليو ١١٣٦ ، يبدو أنه استقر فى برشلونة فى رعاية (Plato of Tiovoli) ، وفى المدة بين ١١٤١ ـ ١١٤٣ كان يعيش

(١) Dict. of National Biography, p. 362, Vol. XLVIII.

قرب (Ebro) مع صديقه (هرمان Hermaun) ليعلمه اللغة العربيّة ، ثم أصبح أرشيدوق (بامبلونا Pampeluna) ، وفى سنة ١١٤١ قام (بيتر) بتكليف (روبرت) و (هرمان) بترجمة عدة كتب عربية إلى اللغة اللاتينية . وكانت النتيجة أن استفاد العالم أربعة تراجم ومقدمة بقلم (بيتر) ويقول صديق (T. A. Archer) الذى قام فيما بعد بدراسة مؤلفات (بيتر) التى تهاجم الإسلام : « قام بترجمة Chronica mendosa et redi culosa) (Sarracenorum وتضم دراسة لحياة محمد وتاريخ الخلفاء إلى عهد يزيد الأول ومصرع الحسين (١٠ أبريل ٦٨٠ م) وترجمة للقرآن مصدّرة بمقدمة للمترجم ومهداة لبيتر) .

ذكر (روبرت) أنه انتهى من ترجمة القرآن فى المدة بين ١٦ يوليو و ٣١ ديسمبر سنة ١١٤٣ .

فتحت مؤلفات (بيتر) عهدا جديدا للصراع الدينى الموجّه ضدّ الإسلام ، فقد كانت مؤلفاته هى المنبع الذى استقى منه كتّاب العصور الوسطى ، ولذا رأينا حملات كثيرة ضد الإسلام فى كتب ألفت بمعظم اللغات الأوربية ، بل إن بعض الكتّاب جعلوا حملاتهم المعادية لمحمد وعقيدته على شكل قصائد شعرية ، فبينما كتب (Walter of Sens) حياة محمد باللغة اللاتينية ، نظمها (Alexander du Pont) بالشعر الفرنسى . وانتشرت

الترجمة التى قام بها روبرت للقرآن انتشارا واسعا طوال العصور الوسطى ويبدو أن (Alberich of Trois - Fontaines) الذى ذاع صيته فى القرن الثالث عشر كان ملمّا بهذه الترجمة وإن كان لم يعتمد عليها . كما اتخذت الحملات الموجهة ضدّ الإسلام أحيانا صورة جدل ونقاش بين رجال الدين المسيحى والإسلام ، وقد يكون هـذا الجدال حقيقيا أو خياليا . وإن كان من غير المشكوك فيه أنه حدثت عدة مناظرات فى مدينة حلب فى سنة ١٢١٥ فى حضرة ابن صلاح الدين ، بين راهب يدعى (جورج) وثلاثة من علماء الدين الإسلامى وحفظ (رايموند) و (لوللوس Lullus) أيضا لنا مناظرة حدثت فى سنة ١٣٠٩ فى مدينة (Bugia) ، وخلال هـذه المناظرة تناوب الحديث يهودى ومسيحى ومسلم ، وشرح كل منهم عقيدته ، وبعد أن بحثوا جميع الأدلة والبراهين انتهوا إلى أن المسيحية هى خير الأديان الثلاثة [١] .

كانت أبرز الاتهامات الظالمة التى وجّهها كتّاب العصور الوسطى إلى المسلمين ، هى اتهامهم بالوثنيّة .

من العسير علينا أن نسكت على هـذه الاتهامات الخطيرة . فإنه من العجب العجاب أن يُتّهم المسلمون بأنهم عبدوا محمّدا باعتباره إلها . زعم أحد الصليبيّين أن المسلم يقول : « نؤمن بمحمد وآلهتنا الأخرى » . ويصف بعض

(١) Prutz ; p. 75

الـكتّاب محمدا بأنه « إله الوثنيين » الذى يتوجهون إليه بالعبادة والإجلال . ذكر (أرنولد Arnold of Lubeck) أن صلاح الدين قال بعـد موقعة حطين للأمير الأسير : « إن محمـدا جعل الله يمدنى بالقوة » ، كما ذكر (أرنولد) عبارة على لسان أحد الفرسان الصليبيين وهى : « إن محمدا ابن الهلاك ، الذى يدعونه إلها ، نحتقره ولا نعترف به ، بل نلعنه » . وجاء فى تقرير عن إرسالية شارل الأكبر فى أسبانيا أن محمدا يعتبر إله المسلمين . كما ذكر (ماتيو Mathew) ـ وهو من باريس ـ أن المسلمين يقدسون محمـدا مثلما يقدّس المسيحيون المسيح تماما .

زعم كتّاب العصور الوسطى أن الخلفاء والمسلمين كانوا يقسمون دائمـا بمحمد والآلهة الأخرين . وقصوا أن (Tancred) بعد فتح بيت المقدس دخل مسجدا كان قد بنى مكان هيكل قديم ، فوجد صورة لمحمد مصنوعة من الفضة ثقيلة الوزن بحيث يُحتاج لعدة رجال لنقلها من مكان إلى آخر . وزعم (Fulcher of Charters) أنه سمع بوجود وثن على صورة محمد فى كل مسجد وأكد (Jacop of Vitsy) أن المسلمين حينما فتحوا بيت المقدس وضعوا فى المسجد الذى أقاموه مكان الهيكل صورة لمحمد ومنعوا المسيحيين من دخول الهيكل . وزعموا أن المسلمين كانوا قبل كل هجوم يشنونه على الصليبيين يستشيرون وثنا يسمونه (محمدا) . هـذه الروايات التى تحمل طابع

التزييف كانت الألسن تتناقلها فى حرية ، وظهرت على نطاق واسع فى عصر الحروب الصليبيّه . جمع (Guibert of Nogent) [١] لأول مرة هـذه الأساطير التى نسجت حول محمد فى العصور الوسطى ، ولـكنه كان أمينا إلى حد معقول فذكر أنه اعتمد فى جمع هذه الأساطير على الروايات التى يتناقلها لسان عن لسان آخر . ولم يكن عند (جيبرت) أى فـكرة عن العصر الذى عاش فيه الرسول ، ولـكنه ـ كما قال عن نفسه ـ كان مضطرا إلى مهاجمته بإعتباره أحد رجال الـكنيسة .

ماسنذكره الآن ، فى رأى (جيبرت (Guibert) أبرز الأحـداث فى تاريخ حياة محمد: يروى أن ناسكا ، مشكوكا فى عقيدته وأخلاقه ، حاول عبثا أن يصل إلى منصب بطريرك الاسكندرية ، فلما فشلت محاولاته أراد الانتقام من الـكنيسة ، ولجأ إلى العزلة ، واستطاع شيطان أن يتقمص روحه المريضه ، ونصحه أن يستخدم ، من أجل تحقيق أغراضه الشريرة ، شابا مالبث أن قدمه إليه . ولم يكن هذا الشاب سوى محمد . واستطاع الناسك أن يسخر محمـدا لتحقيق أغراضه ، وساعده فى الزواج من خديجة ، فقد كان تصوير الناسك لمحمد بأنه رسول الله عاملا على قبول خديجة الزواج من محمد

(١) Guizot, Collection des mémoires relatifs à l'histoire de france, IX, pp. 23 et seq.

رغم أنه كان فقيرا وأقل حسبا منها . وما لبث محمــد أن أصيب بنوبات من الصرع ، مما جعل خديجة تشعر بالخوف ، فأسرعت إلى ذلك الناسك لتجد تفسيراً لمرضه . فأكد لها أن ما تظنه نوبة صرع ماهو فى الحقيقة إلاّ صورة لنزول الوحى . وما لبث أن ذاعت شهرة محمد بإعتباره نبيا ، وما لبث هذا الراهب أن اقترح على محمد أن يجعل تعاليمه على شكل كتاب سماوى ويعززه بمعجزة . وأمر محمد المؤمنين به بأن يصوموا ثلاثة أيام ، ثم أعلن فى هدوء أنه سيريهم كيف ينزل الوحى . وفجأة ظهرت بقرة وانتزعت من بين قرنيها كتابا منزلا ، وركعت البقرة أمام النبى . ومنذ ذلك الحين ، كما يقول (جيبرت) ، لم يشك أحد فى صدق نبوّة محمد ، وأنتشرت الدعوة الجديدة بين الناس . أما فيما يتعلق بهذا الكتاب ، فإن (جيبرت (Guibert) لايعلم عنه شيئا سوى أنه يفتح بابا واسعا أمام الملذات الحسيّة . أما آخر إفتراءات (جيبرت) على محمد ، فهى وصفه لوفاته ، فزعم أنه بينما كان محمد سائرا فى طريق فوجئ بالمرض ، فسقط على الأرض مغشيّا عليه ، وافترست الخنازير جسده فالتهمته حتى عقبيه ، التى كانت الأجزاء الوحيــدة التى بقيت من جثته .

ربما ذكر كتّاب العصور الوسطى هذه الأكذوبة ليبرّروا بهـا إمتناع المسلمين عن أكل لحم الخنزير . هذا هو عرض موجز لما ذكره

(جيبرت) عن محمد . وننتقل إلى (هيلدبرت Hildebrt) أسقف (Lemons) المثقف ورئيس أساقفة ثور (١١٣٣ م) ، فقد كتب تاريخا لمحمد ملأه بكثير من الأساطير المختارة ، ومثله مثل معاصريه ، نعت محمدا بجميع الصفات ، ونسب نجاحه إلى السحر ، كما ذكر قصة افتراس الخنازير لجسده .

فى النصف الأول من القرن الثانى عشر كتب والتر (Walter of Sens) شعراً بعنوان (Oria Walteri de Mohameta) وصف فيه ظهور الإسلام كما رواه له أحد المسلمين الذين أعتنقوا الإسلام ، وقد قدم إلى فرنسا من الشرق الأقصى .

إن التغيير المستمر فى روايته قصة الراهب تدعو إلى الاهتمام . ويبدو أن الناس قد بدأوا يشعرون بتأنيب ضمائرهم لهم لاعتقادهم أن واضع أسس الإسلام قسيس عاص ، وأن محمدا لم يكن أكثر من آلة فى يده يحركه كيف شاء ، وبدأوا يتخلون عن هذه الفكرة . وفى كتاب (هيلدبرت) نجد أن ساحرا حلّ مكان الراهب ، أما (والتر) فتخلى عن الفكرة القديمة القائلة بأن ذلك الراهب كان المرشد الروحى لمحمد. بل صوّر هذا الراهب على أنه مبعوث العناية الإلهية لتحذير الناس من خطر محمد على الكنيسة .

يحدثنا (والتر) عن شىء جديد ، فيحدثنا عن حرب قامت بين أتباع محمد والفرس ، وزعم أن الرسول أراد أن يحوّل الفرس إلى الإسلام لكنه

أخفق فى محاولته وعاد خائبا . وما لبثت هــذه القصص أن أضافت شيئا جديدا . فقد دخل على قصة زواج محمد بخديجة ألوانا من التزييف ، فقد زعموا أن محمدا لجأ إلى الخداع ليتم الزواج . فتذكر الروايات ، فى وقاحة ، أن محمدا من أجل أن يقضى على تردد خديجة فى الزواج من عبدها ، لجأ إلى الحيلة والخديعة ليقنع أهل قبيلتها بالزواج .

لم تجمع الـكتب المسيحية كلها على أن محمدا ولد رقيقا . ونجد أنفسنا أمام قصص خرافية مختلفة ففى كتاب (هيلدبرت) نقرأ أن محمدا استعان فى تأكيد صدق دعوته بثور ، درّبه سرًّا ، بحيث لم يعد يستطيع أحد أن يوجهه غيره . فكان الثور يركع أمام محمد كلما أمره بذلك . ويقصّ الـكتّاب الآخرون نفس القصة ولـكن يجعلون بطلها جملا لا ثورا ، ويضيفون أنه كان حول رقبته كتاب به آيات نزل بهـا الوحى وفى كتاب أندريا داندولو (Andrea Dandolo) جاء أن محمدا درّب حمامة على أن تقف على كتفه وتلتقط حبّات من القمح من أذنيه ، وذهب البعض إلى أن هذه الحمامة هى رسول مقدس تبلغ ما أنزل الله على محمد [1] ويذكر (أندريا داندولو) أيضاً أن محمدا اعتبر نفسه كالمسيح ليفوز بمساعدة اليهود والعرب . وصوّر خديجة

(١) ردد (واشنجتن ارفنج) هذه القصة أيضا وقنا بالرد عليها (انظر حياة محمد ـ ترجمة مترجم هذا الـكتاب) (المترجم) .

على أنها أميرة ، ولذا اكتسب محمد من زواجها قوة ورفعة [1] وزعم أن ساعد محمد الأيمن هو الراهب النسطورى (سرجيوس Sergius) الذى أراد بمساعدة محمد أن يحارب الكنيسة . ويذهب (داندولو) إلى أن محمدا مات مسموما ، ثم يقول : « وليؤكد النبى أنه سيصعد إلى السماء ، طلب من اتباعه أن يتركوا جسده دون دفن ثلاثة أيام ونفّذت أوامره ولكن المعجزة لم تحدث ، ودفنوا الجسد المتعفن بعد أن انتظروا اثنى عشر يوما دون جدوى ». وبعض الكتاب الآخرين يرددون أسطورة الحمامة ولكنهم يستبدلون الحمامة بالنسر ، ويضيفون إليها بعض الاضافات الخيالية .

وفى كتاب (Gesta Imperatorumet Pontificum) للمؤلف (توسكان توماس Tuscan Thomas) الذى كتب فى حوالى سنة ١٢٧٨ مجموعة من هذه الأساطير الخرافية : الراهب ، والحمامة ، والبقرة . وأعاد كتابة هذه الأساطير وأضاف إليها كثيرا من خياله ، ثم زعم أنه استمد هذه الأساطير من كتاب قديم نادر عثر عليه فى (بولونا) . واتسع نطاق هذه الخرافات حتى شملت قصة جديدة نلمسها لأول مرّة ، وتدور حول راهب اختبأ فى بئر وأخذ يأمر الناس بأن يطيعوا الدعوة الجديدة .. ثم رأى محمد أن يتخلص من هذا الصديق الخطر ، فأمر الناس بأن يملأوا هذا البئر بالماء . ونجد كثيرا من

---

(١) كان محمد قبل زواجه من خديجة شخصيته المستقلة الممتازة فقد كان يوصف بالصادق الأمين (المترجم) .

الأساطير والخرافات التى اخترعها كتّاب العصور الوسطى فى كتاب (Speculum Historiale) الذى ألفه أمير (بوفيه Beauvais) وتناول فيه تاريخ الرسول ، فوصفه بأنه تاجر رحل كثيرا حيث تعرّف على المسيحية واليهودية [1]، ولكنه يصفه أيضا بإجادة السحر وأنه تمكن بواسطته أن يفوز بثراء خديجة . ويذهب المؤلف بعيدا فيزعم أن محمدا بعد أن تشبه بالمسيح آمن به الكثير ، ثم يروى المؤلف قصة الحمامة التى كانت تتحدث فى أذن محمد ، ثم قصة البقرة المدربة التى عُثر بين قرنيها على الكتاب المنزّل ، وقصة حفرة مملوءة باللبن والعسل . ثم يذكر الأمير ذلك الحوار الذى دار بين المسيحى والعربى التى سبق أن كتبها باللاتينيّة (بيتر) . وبالنسبة للمؤلف ، فمحمد ليس بأكثر من قاطع طريق ، ولص ، وقاتل ، وخارج على القانون البشرى والسماوى .

ولكن تبدو فى صفحات (بوفيه) أحيانا بعض ومضات من النور [2].

ويبدو أنه من الأفضل أن نترك كتّابا مثل (جيبرت ، وهيلدبرت ، وأمير بوفيه) لننتقل إلا الكاتب (وليم William of Tripoli) وهو يختلف عن معاصريه ، إذ كثيرا ما يمتدح الإسلام ويثنى عليه . ولكننا لا نعتبر كتابه

---

(١) ذهب (ارفنج) أن محمد استفاد من رحلاته إلى الشام فى معرفة تعاليم اليهودية والمسيحية كما استفاد من محادثة مع بحيرى والرهبان السوريين (المترجم) .

(٢) Prutz pp. 82—83

مؤلفا تاريخيا ، إذ أنه فى العصر الذى عاش فيه كان لا يفصل بين التاريخ والخرافة سوى خيط رفيع . ولكننا حينما نقرأ كتابه نشعر أننا تتنفّس هواء نقيا فنظرته بعيدة عن التعصب ، وحكمه ليس نتيجة فكرة خادعة . واجتهد فى فهم الإسلام والرسول ، وهو يرى أن محمدا ليس كما يوصف بأنه دجّال مخادع ، واستنكر الاتهامات التى توجه إلى الرسول وذكر أن ليس لها أساس من الحقيقة . كما أن (وليام) لم يهتم بأسطورة بحيرى ، كما أنه ذكر عدة أسماء لصحابة الرسول ، ووصف صورة واضحة نقية لأيام ظهور الإسلام . ولنرى بعض أقوال وليام ، وإليكم خلاصة لما ذكره عن ظهور الرسول وعقيدته : « أثناء عودة القافلة من سوريا إلى مكة ، وعلى مقربة من سيناء ، كان يعيش راهب مسيحى تقى يدعى بحيرى ، اعتاد التجار أن يمروا بصومعته ويتوقفوا عندها قليلا ، ومن بين هؤلاء كان غلام عربى يعدّه القدر ليقف فى وجه الكنيسة ، واستطاع بحيرى أن يتنبأ بمستقبل محمد . وأراد بحيرى أن يمنع ما تتنبأ به الأيام ، فقرر أن يحوّل محمداً إلى المسيحية . وحينما وصل الغلام إلى فناء صومعة الراهب أخذت أبوابها الصغيرة فى الارتفاع حتى أصبحت فى ارتفاع بوابات قصر الملك ، وتأكد العرب أن هذا الحدث ينبىء بأن هذا الغلام سيكون مستقبله عظيما . استطاع الراهب أن يجعل محمداً يعتنق المسيحية ، وعامله كابن له ، وبذلك نشأ محمد بعيداً عن الوثنية التى تدين بها القبائل العربية . ولمّا أصبح محمد شابا اشتغل

بالرحلات التجارية واشتهر بالأمانة والذمة اللتين تعدانه للعمل العظيم الذى ينتظره . وكان موت سيّده وزواجه من خديجة ، الأرملة الغنيّة ، مما أكسبه أهمّية واحتراما والتف حوله عدد كبير من العرب ، ولكن كان هناك عشرة أشخاص ـ فى مقدمتهم أبو بكر ـ قد ارتبطوا بمحمد بروابط وثيقة من الولاء والتقديس . ولما رأى أصحابه نمّو الصلات بين محمد و بحيرى ، أقدموا على قتل الراهب ، بينما كان محمد نائما بعد أن شرب كمية كبيرة من الخمر . حتى إذا أفاق محمد من نومه ، ظن أنه هو الذى أقدم على قتل الراهب وهو ثمل ، ولذا نهى أتباعه عن شرب الخمر . وكان اعتقاد محمد أنه القاتل مما أطلق جميع نوازع الشر فى نفسه ؛ ومضى هو وأتباعه من العرب يقاتلون ويفتحون البلاد ويرتكبون الآثام . وبعد احدى عشرة سنة من الانتصارات ، مات محمد تاركا وراءه ابنته فاطمة » .

أمّا ماذكره (وليام) عن القرآن ، فهو يثنا على ألانهمله : « حينما كان محمدفى الخامسة والأربعين من عمره أصبح نبيا ونزل عليه جبريل بالوحى . ودونً أصحابه ماجاء به الوحى فكان هذا أصل القرآن » . ويذكر الكتاب المسيحيون ، وفى مقدمتهم (وليام) ، أن بعد وفاة الرسول بخمسة عشر عاما رأى صحابته أن يجمعوا أحاديثه ، ولكن الأشخاص الذين عهد إليهم بالأمر شعروا أنهم غير قادرين على إتمام مهمتهم ، فاضطروا إلى طلب مساعدة اليهود

والمسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام ، فلجأوا إلى تعاليمهم القديمة يقتبسون منها ، حتى إنهم اقتبسوا فقرات كثيرة منها دون أدنى تعديل [1] . أما عن القرآن ، فقد بدأ (وليام) دراسته له بالاهتمام بالسور القرآنية التى تتشابه تعاليمها مع تعاليم المسيحية ، ثم اهتم بالسور التى تبين نظرة المسلمين إلى الله عز وجل . فذكر أن المسلمين يعبدون الله باعتباره خالق العالم ، كما يجلّون المسيح باعتباره نبيًّا كما يحترمون العذراء مريم . وذكر (وليام) أنه أمضى بعض الوقت بين المسلمين ، وأنه بعد أن عاشرهم يمكنه أن يعترف أن الإسلام قد أثّر على المؤمنين به فهذّب أخلاقهم إن الجانب المشرق للإسلام لايتضح إلّا لمن عاش بين المسلمين ، وعرف الأمور على حقيقتها ، وحينئذ يكف عن تحريض المسيحيين ضدّ المسلمين .

يمتدح (ثيتمار Theitmar) الرسول لأنه حث أصحابه على الرحمة وإنكار الذات ، والعطف على الفقراء والضعفاء . وبرّأ (أوتو Otto of Fréising) الإسلام مما اتهمه به الكتاب المسيحيون من مظاهر الوثنية ، وأكدفى عزم أن الإسلام دين التوحيد وأنه يعترف بالمسيحية وسائر

---

(١) بعد وفاة الرسول أمر أبو بكر بجمع القرآن ، فقد لاحظ موت كثير من الحفاظ فى واقعة اليمامة سنة ١١ هـ و عهد إلى زيد بن ثابت بجمعه واعتمد على الحفظ ومادون فى عهد الرسول ، وكان يشترط شاهدين أو شاهداً وكتابه . وكتبت نسخة كاملة من القران فى صحف وسميت المصحف (المترجم)

الرسل . ويرى أنه لا يأخذ على الإسلام سوى أنه ينظر إلى المسيح باعتباره مجرد رجل ولا يعتبره إلها ، بينما يعتبر محمداً رسولاً .

كتب (أوليفريوس Oliverius of Cologne) خطابا مطولا إلى (الكامل) فى مصر ، يناقش فيه أوجه التشابه بين الإسلام والمسيحية ، على أمل أن يُغْريه فيصبح من رعايا الكنيسة . كما ساق المديح فى حماس للكامل لمعاملته الطيبة للأسرى خلال حصار دمياط .

ذكر (جيرهارد Gerhard of Strasbury) الذى أرسله فردريك الأول برسالة إلى صلاح الدين عدة ملاحظات على الإسلام . وإن لم تكن كل هذه الملاحظات منصفة ، إلاّ أن ملاحظاته على أخلاق وعادات المسلمين تدل على الإخلاص ولين الطباع .

أما الواعظ (نيكلدوس Nicoldus of Monte Cristo) الذى عاش فى أواخر القرن ١٣ وفى مطلع القرن ١٤ ، فقد كان أكثر عدلا من معاصريه فقد أمضى سبع سنوات بين المسلمين ودرس فيها القرآن عن قرب ، وأخذ على عاتقه نقد عقيدة محمد ، لكنه لم يتعام عما يحث عليه الإسلام من فضائل ، بل ذهب بعيدا إلى أن طلب من إخوانه فى المسيحية أن يتخذوا من الإسلام وصفات المسلمين مثلا عليا لهم . وأبدى إعجابه بدراسة القرآن فى مدارس بغداد . وذكر أنه عاش ثلاثة أشهر بين سائقى الإبل فى الصحراء ، الذين

لم ينسوا حتى فى أوقات الشدة والضيق أن يؤدوا فرائض الصلاة . ولاحظ أن كثيرا من المسلمين يقبلون على أداء الصلاة فى شغف وتلهف . وأبدى (نيكلدوس) إعجابه بالوضوء الذى يسبق الصلاة . وقال إنه يرجو أن يكون ذلك مثلاً يحتذى ، كما أبدى إعجابه أيضا بحب المسلمين للإحسان والتصدّق ، وقد لاحظ انتشار المؤسسات الخيرية ، وأثنى على نظام الزكاة الذى فرض من أجل مساعدة الفقراء ، وأبدى إعجابه بنظام تخصيص خمس الغنائم من أجل أغراض الإحسان ، كما أن الأغنياء كانوا يوقفون بعض أملاكهم من أجل أغراض الخير ، كما كانوا يتصدقون بالفدية التى كان يدفعها الأسرى للمسلمين مقابل إطلاق سراحهم ، وأبدى إعجابه بشفقة المسلمين على الطيور والحيوانات ، وأظهر مدى إجلال المسلمين لربّهم ، حتى إنهم يبدأون جميع كتاباتهم بعبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) ، كما أنهم يخلعون أحذيتهم قبل دخولهم إلى المسجد . وأشاد بكرم المسلمين وحسن ضيافتهم ، وذكر أن كل من أكل من ملحهم فقد أصبح فى حمايتهم . ورغم هذا الصدق وهذا التفكير السليم الذى أبداه (نيكولدوس) إلاّ أنه كان أحيانا يحذو حذو معاصريه . ولكن الأخطاء التى وقع فيها لاتنقص من قيمة كتاباته فنظرته العامة إلى الإسلام سليمة . أما تعاليم الإسلام ، فإنه ـ كما نتوقع ـ لم يُبْد إعجابه بها ، بل وصفها بأنها مشوشة ، وباطلة ، وغامضة .

وبالرغم من هـذا كله ، فإن روح المؤلف تختلف عن روح غـيره من كتّاب عصره . فقد حاول أن يفهم الإسلام وأن يـكون عادلا فى حكمه عليه ، ويتضح ذلك بوضوح فى كتابه . فلم يوجه السباب والشتائم للإسلام أو للرسول ، ولـكنه حث على هدم ماسماه (التعاليم الباطلة) بسلاح المنطق . أما موقفه من القرآن ، فقد أنـكر أنه منزل من السماء ودلّل على ذلك بأدلة تاريخية ، فيزعم أن القرآن ذكر أن العذراء مريم عاشت فى عصر سابق لموسى وهارون ، وقبل خروج اليهود إلى فلسطين . وانتقد (نيكولدوس) ماجاء فى القرآن عن انشقاق القمر وذكر أنه مستحيل . كما ناقش كثيرا من المسائل التى رأى أنها غـير معقولة ، مثل قانون المواريث ، ووصف الجحيم والمتع الحسيّة التى سيتمتع بها المؤمنون فى الجنة . كما أشار إلى انتقادات المسلمين للتوراة والإنجيل . وحذا (نيكولدوس) حذو غـيره ، فذكر أن التشابه بين الإسـلام والمسيحية جاء عن طريق بعض اليهود والمسيحيين . فذكر (نيكولدوس) أن اثنين من اليهود ومسيحى يعقوبى يدعى بحـيرى أمدّا محمداً بكثير من المعلومات التى استفاد منها فى تعاليمه الجديدة .

وإلى جانب تلك العبارات الرقيقة التى كتبها (وليام) و (جيرهارد) و (نيكولدوس) ، ارتفعت أصوات بالسباب والشتائم . ولم تـكن تلك الأساطير الخرافية التى نسجت حول محمد قاصرة على العصور الوسطى فحسب ، بل استمر

ذلك حتى العصور الحديثة حيث ظهر بعض المؤلفين الذين أزاحوا السحب الـكثيفة التى كانت تخفى وراءها التاريخ الحقيقى للنبى العربى وأبرز هؤلاء المؤلف (شارل فوستر Charles Foster) الذى وضع كتاب (الإسلام على حقيقته) سـنة ١٨٢٩ . ونحن نقدم الشـكر إلى المؤلفين (كوسان Caussin de Perceval) و (ويل Weil) و (ڤون كريمر Von Kremer) و (وليام ميور William Muir) و (كريهل Krehl) إذ أنهم أعطونا صورة عاقلة تاريخية عن محمـد ، كما أعطونا دراسة واضحة نقيـة عن تعاليم الإسلام . ولـكننا لانزال فى انتظار دراسة لحياة محمد بقلم مسلم . ونحن نأمل أن نملأ بذلك فراغا كبيرا فى الأدب الإسلامى .

السلاجقة قبل الحروب الصليبية

كان اسم (الترك) مألوفاً . لأوروبا الغربية منذ غارة الهون ، إذ من المسلم به أنهم كانوا من العنصر التركى . [١]

عرف المسلمون الأتراك منذ عهد المعتصم الابن الثالث لهارون الرشيد . فكان المعتصم أول من ألحقهم بالجيش ، ولكنهم ألحقوا به كرقيق ، وسرعان ما سيطروا على الخلافة فى بغداد .

لاشك ، أنه بمساعدة رماة السهام الأتراك استطاع قائد المعتصم هزيمة الجيش البيزنطى الذى كان يقوده (ثيوفيلوس Theophilus) و (مانويل Manuel) فى موقعة (Dasymon) [٢] .

كانت بداية سيطرة الأتراك على جيش الخلافة واحدا من الأسباب الكثيرة التى أدت إلى سقوط الدولة العباسية . فقد لعبوا نفس الدور الذى لعبه فى إيطاليا (ريسيمر Recimer وجندوباد Gundobad ، وأريستس Orestes) فقد كانوا يولون و يعزلون الخلفاء [٣] .

---

(١) Gibbon , ed. Milman , Vol. V, p. 172,note (a)

(٢) Finlay , Volii, p. 159

(٣) Jonquiere , l' Emp. Ottoman , p. 104

بلغت سلطة الأتراك حدًّا كبيرا سنة ٨٧٩ حتى إن أحمد بن طولون استقل بمصر وأسس دولة استمرت تحكم مصر طوال نصف قرن ، وكذلك استقل الإخشيديون وحكموا مصر وسوريا ، بل مكة والمدينة . وأصبحت حالة بغداد مما يرثى لها ، فبعد فجر جميل بدأت شمسها تغيب . وخلال فترة الضعف والاضمحلال ، تولى خلفاء غير جديرين بالتغلب على مشاكل الحكم وتولى مقاليد الأمور . لم يكن هناك شخصيات مثل (لينو Leo أو زينو Zeno) أو (أنسطاسياس Anastasius) تحيل الضعف إلى قوة تطيل حياة الدولة .

كانت بغداد آخذة فى الإضمحلال السياسى يوما بعد يوم . فى القرن العاشر ، فوض الخليفة الراضى لوزيره إدارة الشئون المالية ، والمال هو سلاح الحرب والسلم ، ولذا أصبح الوزير الخليفة الحقيقى .[1] وقنع الخليفة بالمظهر واللقب الأجوف . وظل هذا الوزير يسىء إستعمال السطة حتى غضب عليه أهل بغداد وثاروا فى وجهه . وسرعان ماالستنجدوا بالبويهيين الذين سيطروا على بغداد وقضوا على نفوذ الأترك . ولكن لقب (أمير الأمراء) مالبث أن منحه الخليفة للمنتصرين . وظلت بغداد فى أيدى البويهيين مدة قرن وأخيرا

---

(٤) Guyard : Le Civilisation Musulmane , pp. 25 , 26.

(٥)

انهار البويهيون أمام عدو قوىّ بدون مقاومة [١] .

أما هؤلاء الذين ظهروا على مسرح السياسة ، فهم السلاجقة . خلال القرون ١١ و ١٢ و ١٣ ظهرت دولة تركية فى مناطق كثيرة من آسيا . كان الزعماء الأُوَلْ للسلاجقة الأتراك : طغرل بك ، وشجر بك وإبراهيم نيال ، أبناء ميكائيل بن سلجوق [٢] . وهم أبناء قبيلة تركية من الغز يرجع أصلهم إلى (أوغز) وهى على رأس جميع القبائل التركية . اعتنقت هـذه الجماعة التركية الإسلام ، فى القرن الرابع الهجرى . عاشوا قرب (Oxus) [٣] فى سلام مع الدولة الإسلامية المجاورة لهم . بينما كانت سياسة محمود الغزنوى مناصبتهم

(١) ولى الخليفة الراضى كثيرا من الوزراء الضعاف فعجزوا عن إدارة شئون الدولة مثل على بن مقلة وعبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح ومحمد بن القاسم الكرخى وسليمان ابن الحسن بن مخلد ، نتيجة ازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى شئون الدولة ، مما دعا الخليفة إلى استمالة ابن رائق حاكم واسط والبصرة وسلم إليه مقاليد الأمور ولقبه (أمير الأمراء) فعظمت سلطته وعلت مرتبته على مرتبة الوزير ، بل ضعف شأن الوزارة . ضعف نفوذ ابن رائق سنه ٣٢٦ هـ نتيجة منافسة الأمراء له . فقد حاربه أبو عبد الله البريدى صاحب الأهواز ، كما ثار عليه أحد قواده (بجكم) ودخل بغداد سنة ٣٢٧ هـ وأصبح أمير الأمراء . ثم تنافس البريديون والحمدانيون على السلطة فى بغداد وانتشرت الفوضى ، حتى استنجد أهل بغداد بالبويهيين فقدموا إلى بغداد ورحب الخليفة المستكفى بهم (٣٣٤ هـ) وسيطروا على الدولة . (المترجم) .

(٢) لا توجد مادة وافية عن السلاجقة فى دائرة المعارف البريطانية .

(٣) انظر ما كتبه ابن خلكان عن طغرل وألب أرسلان ج ٣ ص ٢٢٤ — ٢٣٤ .

العداء . وهذه السياسة أثرت كثيرا فى الموقف السياسى كما سنرى . فقد طرد محمود الغزنوى السلاجقة إلى أذربيجان ، ولكن ابنه سعود رأى أنه من الحكمة أن يحيد عن سياسة أبيه ، فاختار من بين هؤلاء المطرودين إلى أذربيجان ألف فارس تركى وألحقهم بجيشه . وبينما كانت سياسة محمود قائمة على أن يظل هؤلاء السلاجقة الخطرين بعيدين عن إمارته ، فقد تخلى ابنه مسعود عن هذه السياسة الحكيمة ، وقد لقى جزاءه نتيجة حماقته فى موقعة مرو سنة ١٠٤٠ التى هُزم فيها الغزنويون تماما .

قبل هذه المحاولة الناجحة التى قام بها السلاجقة ، بذلت القبائل التركية كثيرا من الجهود لتمد رقعة أرضها . وقد استطاع السلاجقة تحت قيادة (إسرائيل) أو (أرسلان) أن يتخطوا حدود (Oxus) وينتشروا فى المقاطعات الشرقية من فارس وحاول مسعود صدّهم ، ولكن هذا الانتصار لم يقض على السلاجقة ، وإن كان قد أخرّ سقوط الغزنويين . أما أولاد أخيه ، فقد دفعتهم الرغبة فى تحرير عمهم الأسير ، أو السلب والنهب ، إلى أن يعبروا حدود (Oxus) ويندفعوا إلى سهول فارس . وبعد معركة عنيفة ، أصبحت فارس ، التى كانت فى يوم ما مركز الدولة الساسانية ، فى أيدى السلاجقة . فقد دارت هذه المعركة فى مرو التى أصبحت جديرة بأن تكون

عاصمة ، واختار السلاجقة طغرل زعيما لهم [١] .

كان انتصار مرو مما بث روح الثقة فى نفوس الأمراء (طغرل بك ، وشجز بك ، وابراهيم نيال) ، فبدأوا سياسة الفتح ، ولكن كان يتخلل انتصاراتهم بعض الهزائم المؤقتة . وكان ابراهيم أكثر الأمراء نجاحا فى النواحى العسكرية ، وكان أبرز انتصاراته فى سنة ١٠٤٨ فى أرزرم وطرابيزون . ونظر طغرل إلى انتصارات إبراهيم نظرة غيرة وحسد . وفى نوبة انفعال شديد طلب من إبراهيم أن يتخلى له عن همذان وجيبال ، وكان ابراهيم قد استولى عليهما مؤخرا . ورفض إبراهيم هذا الطلب الغريب بحزم . وقامت حرب أهلية ، أدت إلى وقف تقدم السلاجقة ، وانتهت بأن اضطر إبراهيم إلى الخضوع .

فى هذه الآونة ، بينما كان السلاجقة ، وهم فرع من الأتراك ، فى تقدم مستمر ، كانت بغداد تلفظ أنفاسها الأخيرة . فقد كان خلفاء بغداد كما ذكرنا خاضعين إما للبويهيين أو لحكام أتراك أقوياء [٢] . وفى عهد القائم بأمر

(١) انظر الطريقة العجيبة التى يتبعها الأتراك فى اختيار ملكهم (Migne, Dic. des Croisades, p. 996.)

(٢) جرت العادة على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى فترتين : العصر العباسى الأول وكان النفوذ فيه للعناصر الفارسية ، والعصر العباسى الثانى وهو يقسم بدوره إلى فترات : ا ـ عصر نفوذ الأتراك ٢٣٢ ـ ٣٢٤ هـ ب ـ عصر إمرة الأمراء ٣٢٤ ـ ٣٣٤ هـ =

الله ، استطاع البساسيرى ، قائد فرقة الجنود التركية المرتزقة فى بغداد ، أن يقبض على مقاليد الأمور ، وسرعان ماثار فى وجه القائم ونجح فى طرده من بغداد . ولجأ الخليفة إلى العقيلى أمـير الحديثة و بعد أن أمضى عاما كاملا فى منفاه ، بعث يطلب عون (طغرل) ، واستجاب القائد السلجوقى ودخل بغداد وقبض على الملك الرحيم آخر أمراء البويهيين [1] .

أما البساسيرى ، فقد أراد الهرب ، فطلب المساعدة من الفاطميين ، واعترف بالخليفة الفاطمى باعتباره الوارث الحقيقى لمحمد ، ونجح فى الاستفادة مما يجتاح نفس ابراهيم نيال من حقد وغضب ، فى استمالته إليه .

استطاع البساسيرى بمعاونة هـذين الخليفين أن يستعيد نفوذه فى بغـداد سنة ١٠٥٨ . أما طغرل فما زال متيقظا متطلعا لاستعادة انتصاراته . وفى العام

= وقد كان النفوذ لأمراء الأتراك ثم للبريديين ثم الحمدانيين ـ حـ ـ عصر بنى بويه (٣٣٤ـ ٤٤٧ هـ) وقد انتهى بدخول السلاجقة بغداد، ويصف البندارى دخولهم فى كتابه (تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩) ـ (المترجم) .

(١) كان الخليفة القائم فى عهد سلطنة جلال الدولة وأبى كاليجار والملك الرحيم مسلوب السلطة كغيره من الخلفاء الذين سبقوه فى الوقت الذى أصبح فيه بنو بويه أصحاب السلطة الحقيقية دون الخليفة . حاول الجند خلع جلال الدولة وتولية ابن أخيه أبى كاليجار ، وبلغت الفوضى ذروتها فى بغداد بعد سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣٧ م) ، وذكر ابن الأثير (جـ ٩ ص ١٨٢) فى حوادث سنة ٤٣٢ هـ أن النزاع قام بين جلال الدولة البويهى وقرواش بن المقلد العقيلى صاحب الموصل ، الذى لم يعبأ بأوامر جلال الدولة ، وأخذ يؤلب الجند الأتراك عليه ، وانتهت الحروب بعودة العقيلى إلى طاعة بنى بويه . (المترجم) .

التالى راح البساسيرى ، بعد هـذا الانتصار الرخيص ، ضحية مؤامرة ، لقى فيها حتفه [1] . وفى نفس الوقت تمـكن طغرل من القضاء على فتنة أثارها أخوه .

وبعد فترة قصيرة ، استطاع طغرل أن يثبت أقدامه فى العراق وأذربيجان . وبدأ يبسط نفوذه على مساحة تمتد ٦٠٠ ميل من طوروس إلى ارزرم . وفى سنة ١٠٦٠ استولى على أوديسا ، ولـكن القائد (ڤست Vest) استردها منه . وهـذه المدينة هى التى كان أهلهـا أول من أطلق عليهم اسم (المسيحيون) من بين أتباع المسيح . كما أن استيلاء الأتراك على هذه المدينة أمّن مصير الأتراك فى آسيا الصغرى . ويمـكننا أن نحددّ سنة ١٠٦٨ ، وهى السنة التى خان (فيلاريتوس Philaretus) فيها (Antioch) ، التاريخ الحقيقى لانهيار سلطنة الروم .

ولتدعيم هـذه الانتصارات ، دخل طغرل بغـداد وخطب أخت

---

(١) عمل الخليفة المستنصر الفاطمى على توحيد كلمة الأتراك بزعامة البساسيرى، والعرب بزعامة دبيس بن على بن مزيد أمير عرب الفرات وانتصر البساسيرى على جيوش الخليفة العباسى فى موقعة سنجار سنة ٤٤٩ هـ . واستولى البساسيرى على بغداد فى ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ وقتل الوزير ابن مسلمة وخطب للخليفة المستنصر الفاطمى ، على أن سوء حالة مصر المالية ، وقيام المنافسة بين العرب والأتراك فى جيش البساسيرى وعودة طغرل بك إلى بغداد بعد قضائه على فتنة أخيه ابراهيم ينال ، ساعد على القضاء على ثورة البساسيرى بعد الخطبة للفاطميين عاما (المترجم) .

الخليفة [(١)] . ولكنها ماتت فى سبتمبر ١٠٦٣ قبل إتمام الزواج [(٢)] . وبينما كانت موجات الغزو التركى تجتاح سوريا وآسيا الصغرى ، لم تقم الإمبراطورية البيزنطية بوقف هذا التقدم . فقد كانت الدولة تعانى من إضطرابات مالية وإجتماعية . فقد بذّر (چستنيان) الثروة التى جمعها (أنستاسيوس) خلال حروبه الطويلة مع الفرس والفندال والقوط . أما (أجسطس) فقد اغترف من ثروة الدولة ليملأ خزانته الخاصة . وكان بُخل (قنسطنطين) وتهاونه : مما شجع الأتراك على القيام بالهجوم ، بل شجع النورمان المرتزقة على الاعتداء على حدود الدولة البيزنطية، وفى عهده أيضا ، استولى (روبرت جويسكارد Robert Guiscard) على (بارى) آخر معاقل البيزنطيين المنيعة فى إيطاليا . ونزلت جميع أنواع الكوارث على الإمبراطورية ، وأصبحت الثورات والفتن شيئا معتادا .

حفل عهد (نقفور الثالث) القصير بخمس ثورات ، فشلت أربع منها .

---

(١) فى سنة ٤٤٠ هـ عقد الصلح بين أبى كاليجار البويهى وطغرلبك ، واتفقا على أن يتزوج طغرل بك ابنة أبى كاليجار ، ويتزوج أبو منصور بن أبى كاليجار بابنة الملك دواد أخى طغرل بك ، فارتبط بذلك البيتان البويهى والسلجوقى مما أخر استيلاء السلاجقة على بغداد (المترجم) .

(٢) انظر ابن خلكان فيما يختص بزواج طغرل (المؤلف) — كان للملك الرحيم أختان تزوجت إحداهما بالقائم والأخرى بطغرل (المترجم) .

أما الثورة الخامسة فقد نجحت ودفعت بالداهية (ألكسيس Alexius) إلى عرش الإمبراطورية البيزنطية . وكان مؤسس بيت (Commenes) يجمع فى شخصه جميع رزائل عصره . ولعب دورا يدل على الخيانة والغدر أثناء الحروب الصليبية ، وقد اهتم المؤرخون اللاتين بإبراز أخطائه .

وفى الحقيقة ، لايستطيع مؤرخ عادل أن يتهم (ألكسيس) بأن له يدا فيما نال الصليبيين من كوارث أثناء زحفهم [1] . وحتى نناقش هذه المسألة علينا أن نلم بأطراف الموضوع .

قبل أن يتولى (ألكسياس) العرش ، كان طغرل قد وافته منيّته ، وأنتقلت زعامة الأتراك إلى زعيمهم المشهور ألب أرسلان .

ورث ألب أرسلان صفات عمّه ، وخلاصة القول أنه كان نابغا فى الحرب والحكم . كان أول واجب على القائد الجديد أن يؤديه هو قيادة الجيش فى الأجزاء الشمالية من أرمينية . أما الهجوم الثانى فكان موجها إلى عاصمة أرمينيه . كانت مدينة (أنى) تقع على نهر سريع الجريان هو نهر الرها . وبعد مقاومة شديدة سقطت عاصمة أرمينية فى ٦ يوليو ١٠٦٤ م وبسقوطها أكمل ألب أرسلان الإستيلاء على أرمينية وجورجيا . وأصبح

---

(١) انظر إلى دفاع :

Anna (pp. 488 - 491) وانظر (Finlay , Vol. iii , p. 152)

الأتراك يسيطرون على مالطيـة وسوريا ، وقيليقيا ، وكابا دوكيا ، وهى المقاطعات التى تمكنت أن تصدّ هجوم الساسانيين والخلفاء الأمويين والعباسيين . وإن كان اليونان قد تحملوا فى بداية الأمر سيطرة الأتراك ، إلاّ أنهم سرعان ماهبّوا فى وجوههم بعد أن قام الأتراك بذبح أهالى قيصرية وهدم كنيسة (باسيل) وذلك فى عهد (ديوجينس) المتهور الأرعن ، الذى حاز العرش بعد زواجه من (ايودكيا) .

استمر قواد ألب أرسلان يجتاحون آسيا الصغرى . واستطاع (ديوجينس) بعد أربع هجمات عنيفة أن يطرد الأتراك ، فقد كانت نتائج هذه الهجمات حاسمة . فقد استطاع فى الهجوم الأول أن ينقذ (Antioch) من أيدى عرب حلب . ولكن سرعان ماجاءته الأنباء أن الأتراك تجتاح آسيا الصغرى . وجذبت هذه الأنباء ديوجينس إلى الشمال ، ولكن الأتراك سرعان ماانسحبوا إلى بلادهم فى سرعة كبيرة قبل وصول ديوجينس . ولم يكن هناك جدوى من تعقبهم ، فعاد إلى القسطنطينية سنة ١٠٦٩ .

وفى العام التالى ، عيّن مانويل ، شقيق إمبراطور المستقبل (ألكسيس) ، القائد (سبيست Sebaste) على رأس جيشه للهجوم على الأتراك . ولكن مانويل كان سيّء الحظ ، ففى إحدى المرّات التى قاد فيها جيشه ، وقع أسيرا . وفى الأسر ، أخذ آسره ، القائد التركى (كريژ كورول

Chrysokroul) يتفاوض معه لتـدبير مؤامرة ضد ألب أرسلان ، وكشف ألب أرسلان المؤامرة وأراد الانتقام من (مانويل) فتقـدم واستولى على (منزيكرت) الواقعه بين أرزرم و بحيرة وان . ولـكن (ديوجينس) تقدم واسترد المدينة فى سهولة . وان كان الأتراك قد هزموا إلاّ أنهم مالبثوا أن إستعادوا قواهم وهزموا ديوجينيس (١) .

وهناك أسباب كثيره أدّت إلى هزيمة الإمبراطور البيزنطى أبرزها خيانة قواده له . وفى ٢٦ أغسطس ١٠٧١ م حاز ألب أرسلان نصرا حاسما . وصف (جيبون) بقلمه السيّال ، وفى وصف مؤثر ، معاملة ألب أرسلان للإمبراطور رومانوس ديوجينوس . فقد عامله معاملة طيبة ، ووافق ديوجينس مختارا بأن يدفع ثلاثة آلاف وستين قطعة من الذهب وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين .

كانت هذه الهزيمة سببا لثورة الرأى العام على (رومانوس ديوجينيس) السيئ الحظ . ثم حدثت عدة تغييرات وأحـداث ، استغرقت عدة سنوات تولى (ألـكسيس) عرش الدولة البيزنطية (٢) . ولـكن حياة ألب أرسلان

---

(١) Migne, Dict. des Crusades, p.998 ; Gibbon, Vol. Vii, p. 60

(٢) De Feat of Romanųs , 1071 ; Alexius Empror , 1081

إنتهت باغتياله بعد النصر العظيم الذى حازه فى (منزكريت) ولـكن موت هـذا الفاتح العظيم لم يحل دون أن تـكون آسيا الصغرى فريسة للقوات التركيـة .

بعد وفاة ألب أرسلان ، خلفه ملك شاه الذى كان اسمه يضيف كثيراً من الأمجاد إلى أمجـاد وفضائل رئيس وزرائه نظام الملك . وقد خلف ألب أرسلان سنة ١٠٧٢ بعد أن تغلب على عمّه (Kawurd) ، وتمـكن من فتح تركستان وهى نفس الفـكرة التى جالت فى ذهن ألب أرسلان . ودانت سوريا وفلسطين أمام جيشه المنتصر ، وسقطت بخارى وسمر قنـد وخراسان بدون مقاومة . وفى ظل ملك شـاه بلغت امبراطورية السلاجقة أقصى عظمتها . ومنح سوريا لأخيه (توتوش) الذى استقر فى دمشق [١] . كما عهد إلى سليمان بحكم آسيا الصغرى ، وهو سليمان الذى أسس (سلطنة الروم). وقد استفاد الأتراك مما كانت تعانية الدولة البيزنطية من مشاكل مالية ، وقد أدت ظروف الدولة إلى أن أصبح الشعب المسيحى يـكره اليونان والحـكم اليونانى [٢] .

---

(١) ابن خلـكان ، مادة توتوش ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٢) انظر Mémoires , par Guizot , tom. xx , p.p. 32-32

وإلى جانب كراهية كثير من العناصر للدولة البيزنطية ، كانت هناك عوامل أخرى تقوى من مركز السليمانية فى آسيا الصغرى . ففى سنة ١٠٧٤ اعترف ميشيل السابع بحكم سليمان لينال مساعدة الأتراك المرتزقة فى إخماد ثورة (چون دوكاس John Dukas)

عمل نقفور الثالث على تدعيم المعاهدة التى بينه و بين ميشيل ، فاعترف بها ، وأكد العمل بنصوصها . وقد لجأ نقفور إلى هذه السياسة ليضمن مساعدة الأتراك فى خلع ميشيل السابع . وتكررت نفس السياسة حينما ثار (نقفور ميليسينوس) ضد نقفور الثالث . واتسع نطاق هذه الثورة وأعطت فرصة لسليمان للإستيلاء على بنقيا فاتخذها عاصمة له . وكان (ألكسيس) حريصا على تجنب عداء سليمان له ، فقد كان يسيطر على معظم آسيا الصغرى ، ولذا وافق على أن تكون (دراكو) الحدّ الفاصل بين المملكتين . ولهذا السبب خان (فيلارتوس Philaretus) سنة ١٠٨٤ (أنتيوخ Antioch) حينما أصبحت سلطنة الروم تقوم على أسس متينة . وحينما أسر (أنتيوخ) ، اشتبك سليمان فى حرب مع أمير حلب ومع توتوش ولكن الأخير تمكن من هزيمة سليمان قرب حلب وأسره ، وما لبث أن أقدم على الإنتحار سنة ١٠٨٦ .

هذه الأحـداث الخطيرة دعت إلى تدخل سريع من ملك شاه ، وكان يحتفظ لديه بأبناء سليمان كرهائن ، فعهد بحـكم آسيا الصغرى إلى قائديه (برسوك Bersuk) و (بوزان Buzan) فاتبعوا سياسة أكثر مسالمة . و بعد حكم مستنير دام عشرين سنة ، اختفى ملك شاه من مسرح السياسة تاركا العرش لبار جياروك الذى بعـد توليته الحـكم سنة ١٠٩٢ سمح لـكيليج أرسلان ، ابن سليمان ، أن يعود إلى إمارة أبيه .

أما كيلج أرسلان هـذا ، فهو الذى استطاع أن يهزم و يقتل الحمـله الصليبيه التى كان يقودها (والتر بنيلس Walter Bennyless) [١] .

بعـد موت ملك شاه تفتت الدولة السلجوقية ، وقد لاقت نفس المصير الذى لاقته دولة شارلمان، بعد وفاة هذا الملك العظيم . و يرى المؤرخ (جيزو Guizot) أن أسباب سقوط إمبراطور ية شارلمان ، هى نفس أسباب سقوط إمبراطور ية ملك شاه ، فالدول مثـل الإنسان ، وحينما تـكون الدولة فى شبابها تستطيع أن تدير جهاز الحـكم وتتغلب على جميع المشاكل ، وخاصة إذا كانت الدولة قد بلغت اتساعا كبيرا .

إن انتشار الثقافة بين الناس ، وافتقار الحـكومة إلى أساليب سياسيّة

---

(١) انظر Coll. des Mémoires, par Guizot, tom. xx, pp.22 - 23

حكيمة ، إلى جانب العوامل الطبيعية التى تتميز بها دولة عن دولة أخرى ، هى التى تؤدى إلى انهيار امبراطوريات ، مثل امبراطورية شارلمان أو امبراطورية ملك شاه السلجوقى . إن صعوبة المواصلات بين إقليم وآخر ، بل بين مدينة وأخرى ، مما يضعف قوى الحكومة المركزية ، إذ أنها تؤدى إلى ضعف صلاتها بالمقاطعات البعيدة وإلى ميل حكام هذه المقاطعات إلى الإستقلال . وهذه الحقيقة تبدو بوضوح فى تاريخ الخلافة . بعد وفاة ملك شاه بدأت مظاهر الضعف فى الدولة ، بحيث لم تعد تجدى معها أى نوع من السياسة الحكيمة . فقد مال أمراء الامارات إلى الاستقلال ، فحطموا بذلك وحدة الامبراطورية السلجوقية . ولا يهمنا هنا دراسة عهود أبناء ملك شاه .

مات توتوش الذى عهد إليه ملك شاه بحكم سوريا، أثناء قتاله (بارجياروك) قرب باى سنة ١٠٩٥ .

قبل قدوم الصليبيين إلى الشرق ، كانت روح الاستقلال قد انتشرت بين المسلمين ، وكانت روح الانقسام هذه بين زعماء المسلمين ، كما لاحظ ابن الأثير ، هى التى شجعت المسيحيين على أن يشهروا سلاحهم [١] . ولو كان للمسلمين حاكم مثل ألب أرسلان أو ملك شاه حينما اندفع الصليبيون إلى

Bibliothèque des Croisades, tom. iv., pp. 1 - 4. (٢)

سوريا لما نالوا النجاح الذى حصلوا عليه فى الحملة الصليبية الأولى . كان الجيش غير المدرب . ومجالس الحرب المفككة ، والشقاق بين القواد ، وذلك الحشد الكبير من النساء والأطفال ، والمسنين والعجزة يحدثنا كيف يكون مركز الإفرنج حرجا حينما يلتقون بقائد مثل ملك شاه .

ولكن خلال الحروب المدمرة، والصراع الدامى ، كانت البلاد الإسلامية تفيض بأمواج من الدماء ، فقد كان رقىّ أسلحة المسلمين سبباً فى كثير من الهزائم التى لحقت بالصليبيين أثناء الحملة الصليبية الأولى، كانت آسيا الصغرى — كما ذكرنا آنفا — فى يد (كيليج أرسلان) ابن سليمان ، بينما كان شمال سوريا فى يد الأمير كمشتكين ، وهذا الأمير ينتمى إلى مملكة (دانيشمند) ، ومؤسسها (تالو) ، وهو — كما تقول الروايات — كان صاحب مدرسة ، وقد اكتسب أحفاده عنه لقب (دانيشمند) .

وما زال تاريخ هذه المملكة المبكر غامضاً ، ولكن من المحتمل أن بعد وفاة سليمان ، تمكنت الأسرة المالكة من الاستيلاء على سيواس وتوكهات ونسار وأباستان وملطيه . وحينما قامت الحرب الصليبيّة الأولى ، كان الحاكم كمشتشين وهو الذى أسر (بوهيموند) [1] . وفى الجزيرة ، كانت هناك

(١) كتب (أوردريك Ordric) أسطورتين طريفتين حول أسر بوهمند — انظر كتاب : (Guizot , Mémoires , tom , xxv iii , pp. 122 — 140
ولكن ابن الأثير يبدو أن روايته أكثر وثوقاً بها . فقد روى أنه فى سنة ١١٠٢ =

اضطرابات مماثله ، فقد أعلن كيربوجا حاكم الموصل إستقلاله . أما فى سوريا ، فقد كانت الاضطرابات على صورة أكثر خطورة ،فقد استطاع رضوان الابن الأكبر لتوتوش السيطرة على حلب ، بينما استولى الابن الأصغر (دوقاق) على دمشق ، ووقفت جيوش كلّ من الأخوين موقفا معاديا من جيوش الأخ الآخر ، وحينما طلب (باجى سيان) حاكم أنطاكية مساعدة الأمراء المسلمين ضدّ الفرنجة ، رفض رضوان تقديم المساعدة لأن أخاه (دوقاق) انضم إلى (باجى سيان) .

كان هناك امارات أخرى : فكان (باجى سيان) يحكم أنطاكية ، وفخر الملوك ابن عمار يحكم طرابلس .

وهناك حقيقة تصوّر الانقسام المؤلم الذى ساد بين المسلمين ، يمكننا أن نذكرها هنا . فرغم أن (توچتچين) حاكم دمشق، وابن عمار حاكم طرابلس قد طلبوا مساعدة سلطان فارس ، إلاّ أنه لم يقبل أن يقدم المساعدة لمسلمى سوريا إلاّ بعد كثير من المحاولات غير الناجحة .

أُرسلت فرقة تركية نظامية بقيادة (جبغالى سكافا) و بدلا من أن يجمع قوات الإمارات الإسلامية و يوجهها ضد الفرنجة ، فقد فضل السلطان أن يهاجم (جيكرميش) ، الذى تبع (كيربوجا) فى امارة الموصل ، وكانت هذه هى

= أن بوهمند افتدى نفسه من الأسر بأن دفع مائة ألف قطعة من الذهب (انظر كتاب :
(Reinaud , Bibliotheque , tom i.v., p. 17)

السياسة الوحيدة التى اتبعها ، حينما كانت أوروبا تعمل على إبادة المسلمين . حقا ان (چيكرميش) قد لقى حتفه ، لكن سلطان فارس لم يشتبك مع الفرنجة .

وطالما أن المسلمين قد أنقسموا على أنفسهم ، وكان كل أمير يعمل على القضاء على الأمير الآخر ، فإننا لا نعجب لما نالته الحملة الصليبية الأولى من نجاح باهر .

الأمويون والدولة الرومانية الشرقية

يبدو عجيبا لأول وهلة ، بينما سقطت المدينة الخالدة [1] على أثر هجوم المتبربرين من القوط ، والهون ، والوندال ، ظلت القسطنطينية بعيدة عن هذه الأخطار .

ولكن دهشتنا تزول حينما نتأمل فى وضع كلٍّ من المدينتين . وكان بقاء روما الجديدة يعتمد على عوامل كثيرة. وفى مقدمة هذه العوامل، موقعها الممتاز الذى يمكنها من صدّ المغيرين . وقد حفظ التاريخ أخبار حصار الفرس فى سنة ٦٢٦ ، وحصار العرب للقسطنطينية سنتى ٦٧٢ و٦٧٧ . وفى هذه المرات ، وفى غيرها ، كان موقع القسطنطينية هو سبب نجاتها .

أما العامل الثانى الذى منحته الطبيعة للقسطنطينية ، فهو إعتمادها فى تأمين نفسها على سلسلة من الحكّام من معدن يختلف عن معدن أحفاد (هونوريس Honorius) . لقد نجح (ليو) و (زينو) و (أنستاسيوس) و (جستنيان) فى إنقاذ عرش (أركاديوس Arcadius) مما اعترى عرش (هونوريوس) .

كما أنه من الحقائق الهامة ، أن البرابرة حينما لمسوا مناعة القسطنطينية ،

---

(١) يقصد المؤلف مدينة روما (المترجم) .

وأدركوا سوء حظهم فى اقتحامها ، عزموا على أن يتجهوا نحو الغرب . حقيقة ان البرابرة أزعجوا الامبراطورية الشرقية ، ولكن ما قاموا به من تخريب كان محلياً ومؤقتاً .

اتجه (الاريك Alaric) نحو إيطاليا . فقد تذكر الأيام السوداء التى مرت به . ورأى أنه يكون أسعد حظاً فى الغرب منه فى الشرق . وارتكب كثيراً من أنواع التخريب فى شبه جزيرة البلقان ، ومكث أهلها فى إصلاحها أربعين سنة ، وهى المدة بين رحيله وغارات الهون الفظيعة ، فقد خربوا كثيراً من المدن . وجرب القوط والسلاف حظهم فى الهجوم على الامبراطورية ، ولكن حتى عهد الامبراطور أنستاسيوس تمكنت الامبراطورية من صدّ هذه الموجات البربرية .

بنى الامبراطور أنستاسيوس كثيراً من الأسوار لصدّ هذه الغارات . واستمر الامبراطور جستنيان فى هذه السياسة ، فبنى كثيراً من القلاع ليمنع تقدم السلاف والآفار .

كان على الامبراطورية الشرقية أن تصدّ البرابرة إلى جانب ضمان ولاء الولايات البعيدة ، وتأمين الدولة من تهديد العرب الذين ما لبثوا أن أغاروا عليها ، كما على الدولة أن تقضى على الخلافات الداخلية التى كانت تزداد يوماً بعد يوم وتدفع بالدولة إلى السقوط .

هناك حقيقتان واضحتان ، تشرح النجاح السهل الذى حازه العرب فى القرن السابع : أولهما المجادلات الدينية وثانيهما المظالم المالية . فقد أدتا إلى بث العداء والشقاق بين طبقة العامة والطبقة البيرقراطية فى القسطنطينية .

كان انتصار المذاهب الدينية قائما على الهراطقة (مثل النسطورية والمنوفستية وغيرها) وقد أدت إلى كثير من الأخطاء ونجحت فى خلق رعايا يختلفون فى مدى ولائهم للإمبراطورية .

وإلى جانب الاضطهادات الدينية — وهى من مميزات الإمبراطورية الشرقية — كانت هناك المشاكل المالية تثقل كاهل الأهالى وتؤدى بهم إلى حالة أقرب إلى الرق . لم تكن هناك روابط تربط بين مصالح الإمبراطورية ، ولم تكن هناك عاطفة وطنية تدفع إلى حماية أرضها . وحاول (تيبريوس) و (موريس) أن يصلحا من شأن المجتمع فيقيمانه على أسس ثابتة ، ويدعمانه بمبادئ سامية ، ولكن بدون جدوى. وحينما كانت الإمبراطورية الشرقية[1] تتداعى نحو السقوط ، هبّت نسمات من الفأل الحسن آتية من شواطئ إفريقية ، وكانت هذه النسمات رجلا يستطيع أن يواجه مشاكل الساعة بأن يعرض وسائل الإصلاح . وكان ذلك الرجل هو (هرقل) أحد أبناء القرن السابع النجباء . فقد أراد أن يكتسب الشهرة التى حازها الإسكندر أو هانيبال أو

(١) يقصد المؤلف الدولة البيزنطية (المترجم) .

قيصر ، وإن حفلت الفترة الثانية من حياته بالهزائم التى ألحقها العرب به .

كان ظهور هرقل فى وقت أحاطت المصائب فيه بالإمبراطورية الرومانية، كما كان ظهور معاصره (محمد) فى مكة كنبى ومشرّع وقائد للعرب ، أبرز أحداث القرن السابع .

فى الوقت الذى كانت فيه بلاد العرب تعانى من تغييرات اجتماعية وسياسية ، ظهر محمد . فقد أدّى الاشتغال بالتجارة إلى انتشار أفكار حديثة بين البدو سكان الصحراء ، كما أن احتكاكهم المستمر باليونانيين أدّى إلى اقتباس العرب لأخلاقهم وحضارتهم . فقد كانت تجارة البحر الأحمر فى أيديهم ، كما كانوا يمتلكون بعض الموانى الهامة منذ عهد ليو الأول إلى عهد أنستاسيوس . كان ظهور محمد مما يتطلبه حاجات ذلك العصر . كان محمد أحد أبناء قبيلة قريش ، ملماً بأسرار التجارة . وبينما كانت تنتشر بين العرب أفكار جديدة شابة ، كان الجو يشوبه أخلاق سيئة وأذواق فاسدة ، كانت فارس تعيش فى ظل التعاليم المزدكية المنحلّة، بينما كانت الإمبراطورية الرومانية يسودها العادات السليمة والأخلاق الطيبة . ولذا ، ومن جميع وجهات النظر ، كان ظهور الإسلام فى وقت مناسب .

لن نتحدث عن الأيام الأولى لظهور الإسلام ، وسنبدأ دراستنا من بعد عقد معاهدة الحديبية . ما كاد محمد يقيم عقيدته على أسس قوية حتى بدأ

يتطلع إلى نشرها خارج وطنه . فمنذ عقد معاهدة الحديبية ، بدأ محمد يبعث رسله إلى رؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى اعتناق دينه ، كان أول اشتباك مع الروم حين قتل أحد رسله فى البلقاء ، وقد هُزم الجيش الإسلامى فى مؤتة سنة ٦٢٩ م ، واستطاع خالد أن يعود ببقية جنده [١] .

فى العام التالى ، تواترت الأخبار أن هرقل يعد العدّة للهجوم على المسلمين . فأعد المسلمون جيشا ، وتحوّل زعيم الإسلام الروحى إلى قائد لجيش لايخشى شيئا . وتقدم محمد على رأس ثلاثين ألف رجل للقاء هرقل . ولكن ما كاد محمد يصل إلى تبوك [٢] . حتى علم أن الأنباء كاذبة . ولكن الحالة لم تكن غير مثمرة ، فقد تم إخضاع كثير من الجماعات اليهودية والمسيحية فى شمال الجزيرة العربية . وهذا يثبت أن محمدا كان يريد ، خلال حياته ، أن يكون الإسلام ديناً عالمياً . وقبل وفاة محمد ، أعدّ النبى العربى حملة لقتال الروم ، كانت على استعداد للسير لولا وفاته ٨ يونيو ٦٣٢ م .

أدّت وفاة الرسول إلى تعريض الإسلام لتيار خطير من الشك . فقد دفعت كراهية الوثنيين للإسلام بهم إلى مقاومة انتشار الإسلام . ولولا

---

(١) Sale, Prelim. Disc., pp. 19 ، 28 ، 29. استمددت معظم الحقائق من دراسات : Gibbon ، Sismondi ، Bury ، Finlay

(٢) انظر Gibbon ، vol. vi ، Smith 's note (a) ، p. 259

شجاعة خالد وحكمة أبى بكر لحاز أعداء الإسلام النصر فى ذلك اليوم . كان خلفاء محمد يمتازون بالقوة والحزم ، وكانت هذه الصفات هى طريق المسلمين إلى المجد .

لو لم يقع النزاع بين على ومعاوية، لظلت سماء الإسلام خالية من السحب، ولكان مستقبل المسلمين أكثر سعادة وربما أكثر توفيقا . وقد ترك هذا الشقاق جرحاً لم يلتئم مدة طويلة كما أن هذا الحدث أفاد الإمبراطورية البيزنطية ، فقد أعطت (كونستانس الثانى) حرية التصرف مع السلاف .

كانت خلافة أبى بكر قصيرة لكنها مثمرة ، فقد قضى على المرتدين الذين أنكروا عقيدة محمد وأرادوا العودة إلى الوثنية . وفى عهد أبى بكر ، ارتفعت رايات الإسلام على الأراضى الفارسية والمسيحية .

فى سنة ٦٣٣ فتح العرب سوريا ، رغم أن هرقل كان فى أوديسا أو أنطاكية يراقب الخطر الجديد الذى يهدد الإمبراطورية . وفى نهاية سنة ٦٣٣ حوصرت مدينة Bostra ثم سقطت فى أوائل العام التالى . استمر نجاح المسلمين ، فسقطت مدينة بعد مدينة ، وفشل الروم فى وقف هذا التيار . قبيل وفاة أبى بكر حدثت موقعة أجنادين [١] التى هزم فيها الجيش الرومانى . وفى

---

(١) أنظر Guy Strange , Palestine under the Muslims , p. 389) حدثت المعركة فى ٣٠ يوليو سنة ٦٣٤ ومات أبو بكر فى ٢٢ أغسطس .

سجلات تاريخ الجهاد العسكرى للإسلام ، صفحة بيضاء لعمر . وإن كانت الروايات تحيط اسمه بكثير من الخيال ، إلا أن التاريخ لا يقل عن هـذه . الروايات فى تمجيده فيضعه بين أعظم الحـكام وأنجح القواد .

وفى نهاية عام ٦٣٤ حاز خالد نصرا عظيما عند ضفاف اليرموك . فقد هُزم تيودور شقيق الإمبراطور وقائد جيوش الإمبراطورية . أدّى انتصار اليرموك إلى فتح أبواب سوريا ، فتتابعت الانتصارات . حوصرت دمشق ثم سقطت بعد دفاع عنيف من أهلها وما لبثت كثير من مدن الشام وحينما رأى هرقل هذه الـكوارث التى تلحق به فى أواخر حياته ، رحل عن سوريا سنة ٦٣٦ ، وكان رحيله إيذانا بـكثير من الـكوارث ، فقد سقطت أنطاكية وبيت المقدس سنة ٦٣٧ .

ومض بريق من الأمل ، خلال ساعات اليأس ، فقد حاول القيصر البيزنطى سنة ٦٣٨ أن يبذل جهدا أخيرا لاستعادة شمال سوريا . فقـد بعث ابنه قنسطنطين إلى سوريا ، وحشد هذا جيشا قويا لتحرير شمـال سوريا من المسلمين ، ولـكن الروم مالبثوا أن هزموا وظلت سوريا على ولائها لسيدها الجديد .

ورغم أن معظم السوريين قد قبلوا فى هدوء الحـكم الإسلامى ، إلاّ أن بعضهم احتفظوا بروحهم وحماستهم الوطنية . ومن جبال طوروس ، قدمت

جماعة من الجنود الأشداء وهم المردة (الجراجمة) ، ونزلت وديان جبال لبنان حيث عاشت في ظل الحرية التي اعتادوها ، وما لبثوا أن انتشروا في جبال لبنان وأصبحوا عنصرا خطرا على الحكم الإسلامي في سوريا . ولم يكتفوا بأن وقفوا في وجه الفتح الإسلامي ، بل حملوا دائما لواء المعارضة ، وغزوا البلاد الإسلامية .

كان من عوامل مهادنة معاوية لقنسطنطين الرابع ازدياد المتاعب التي يثيرها المراونة . ورغم أنهم كانوا في الحقيقة يقدمون خدمة جليلة للإمبراطورية إلا أنهم كانوا ينظرون إليها نظرة شك ، وينظرون إلى البلاط البيزنطي بعين ملؤها الكراهية . وفي عهد جستنيان الثاني ، تحركت هذه الجماعة وانتشرت في مقاطعات الإمبراطورية . وكان تحرك هذه الجماعة المعادية مما أتاح الفرصة لانتشار الصبغة الإسلامية ، واغتنم عبد الملك هذه الفرصة واستفاد منها .

وإن كان يحق لسوريا أن تنعى حظها ، فإن فارس لم تكن أسوأ حظا منها . ففي خلافة أبي بكر ، بينما توجه أبو عبيدة إلى سوريا للمساهمة في فتحها ، صدرت الأوامر إلى خالد لإخضاع فارس للحكم الإسلامي . وكان خالد يستمتع بسلسلة من الانتصارات على ضفاف نهر الفرات حينما استدعى ليساهم في فتح سوريا .

أسند شرف إخضاع فارس إلى سعد . وفى سنة ٦٣٦ انتصر سعد ، قائد عمر ، فى موقعة القادسية و بعد هـــذه الموقعة بشهور قليلة اقتحم المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية . وفى أوائل سنة ٦٣٧ أدت موقعة جلولاء إلى أن أصبحت كل الأراضى غرب جبال زجروس الممتدة بين نينوى وسوسه تحت أقدام العرب . ثم كانت موقعة نهاوند سنة ٦٤٢ وهى من أهم المواقع . ولـكن فارس لم يتم إخضاعها كلها إلاّ سنة ٦٥١ حينما اعتقل يزدجرد فى مرو ، بينما هرب ابنه ملتجئاً إلى إمبراطور الصين .

أما مصر ، التى كانت قد شهدت كثيرا من الثورات ، فقد وقعت فى قبضة المسلمين . ورغم أن فتح مصر تم بسهولة ، إلاّ أنها تعرضت باستمرار لهجوم الإمبراطورية البيزنطية . كانت أسباب النزاع المختلفة ، فى الدولة البيزنطية ، تهيىء الفرص لتقدم المسلمين ، وتمثل مصر صورة واضحة لهـذه الخلافات . كان اليعاقبة ينظرون إلى الروم نظرة عداء ، كما امتلأت قلوب الروم بكراهيتهم . وقد رد المقوقس حاكم مصر على رسالة محمـد ردّا جميـلا مهذبا . وحينما بدأ عمرو فتح مصر لم يستقبل كعدو بل كمحرر . ورضى البطريق (سيروس) ، بالاتفاق مع المقوقس ، بدفع جزية سنوية للعرب مقابل وقف القتال ، ولـكن هرقل عارض هذا الاتفاق وأرسل (مانويل)

لحماية الولاية ونقض الاتفاق . ولـكن (مانويل) لحقت به الهزيمة واستمر وعمرو فى فتح البلاد .

استولى عمرو على (بلزيوم) بعد ٣٠ يوما ، بينما أُمضى سبعة شهور يعمل من أجل الاستيلاء على بابليون (القلعة الرومانيـة فى جنوب القاهرة الحديثة) .

جذبت الإسكندرية المنتصر ، وصمد أهلها للحصار أكثر من عام . ولمّا لم تصلهم مساعدة من القسطنطينية فقـد استسلموا للمسلمين . وأسفت الإمبراطورية لخسارة الإسكندرية ، وبُذلت محاولتان لاستعادتها ، ولـكن هزم العرب الروم فى كلتا المرتين [١] .

ومن الإسكندرية ، تقدمّ العرب نحو ليبيا للاستيلاء على برقة وطرابلس ولـكن صدر أمر بوقف الزحف ، فقد اجتاحت الحرب الأهلية الإمبراطورية الإسلامية فى منتصف القرن السابع .

حينما انزاحت قبضة عمر عن الدولة (٦٤٤) بدأت الفوضى الاجتماعية والسياسية تجتاح الإمبراطورية الإسلامية رويدا رويدا . فقـد كان الخليفـة

---

(١) بعد أن فتح المسلمون الإسكندرية تركوا فيها حامية ضعيفة ، وأراد الرومان أن يغتنموا الفرصة فحاولوا استعادتها ولـكنهم هزموا ، وفى سنة ٦٤٦ بعث كونستانس الثانى (Constans II) جيشاً بقيادة مانويل لاستعادة الإسكندرية ولـكن محاولته باءت بالفشل أيضاً .

عثمان حاكما ضعيفا ورجلا مترددا . وأدت أخطاؤه وعدم حزمه إلى مصرعه (٦٥٥) الذى كان نذيرا بالحرب الأهلية .

قام اثنان يطالبان بالخلافة . ولن نذكر هنا تفاصيل الأسباب المختلفة التى تقدّم عليّا ، ولكن نكتفى أن نقول إن عليّاوقع فى شرك غدر معاوية . واستطاع حاكم الشام فى النهاية أن يربح المعركة وأصبح الخليفة الوحيد غير عابئ بروح المعارضة فى الجزيرة وفارس . وساعد مصرع علىّ (٦٦٠) معاوية على أن يصل إلى السلطة التى طمع فى الوصول إليها ، وحازها بدون شرف . خلفَ علىّ ولدين : الحسن والحسين . كان أهل العراق موالين لأسرة علىّ وبايعوا الحسن بالخلافة ، ولكن ابن على النبيل تنازل عنها لمعاوية . ومهما كانت أخطاء معاوية فقد كان بدون شك جديراً بالمنصب .

حقاً إنه ضحى بتعاليم الدين من أجل مصلحته الذاتية ، وحقاً إن معاصريه اتهموه أن له يدا فى مصرع الأشتر والحسن ، وحقاً إنه أخطأ فى معاملة علىّ باعتباره أحد صحابة الرسول . ولكن المؤرخ المنصف سيتأثر بشخصية معاوية حين يسجّل الخدمات التى أدّاها معاوية للإسلام .

أصبح من الأمور التقليدية أن يقال إنه فى قيام حكم معاوية نهاية تعاليم الإسلام الديمقراطية[١] . ولكن الرأى أصبح ممجوجا ومتناقضا مع الحقائق .

---

(١) Ameer Ali : Spirit of Islam , p. 441

حقا إنه لا يمكن أن ننكر أن العرب أحبّوا الحرية[1] . ولكننا نشك كثيراً فيما إذا اعتنقوا المبادىء الديمقراطية الحقيقية التى انتشرت مثلا فى مقاطعات سويسرا .

فى بداية التاريخ الإسلامى . كان الخليفة فى نفس الوقت زعيما سياسياً وقائداً روحياً . وكانت كلمته هى القانون ، ولم تكن فى مخالفة أوامره مخالفة لقانون الدولة فحسب ، بل عصيانا لأمر الله . ولمّا كان الخلفاء الثلاثة الأولون على جانب كبير من الطموح ، والدهاء فقد كانوا يحكمون الدولة فى ظل الثيوقراطية .

إن أى باحث مدقق فى التاريخ السياسى فى ذلك العصر ، يلاحظ أنه كان عصر استبداد وطغيان ، فقد استطاع معاوية أن يغتنم الفرصة وحاول أن يحوز السلطة الدينية والسياسية التى كانت لمنصب الخلافة وظهرت بوضوح فى عهد عمر ، كما حاول أن يتلافى أخطاء عثمان ، ونحن نرى أفكار المسلمين السياسية بوضوح فى صفحات كتاب (الفخرى)[2] ونجد أن صاحب الفخرى

---

(١) انظر ما كتبه ابن خلدون عن أخلاق العرب .

(٢) (الدولة الإسلامية) طبعة Gorha ومقدمته بقلم Vide (للمؤلف) . يقصد المؤلف كتاب (الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية) ومؤلفه محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى المتوفى سنة ٧٠١ هـ (المترجم) .

مثله مثل سائر الكتاب يحبذون قيام نظام حكم ملكى مطلق غير مسئول[1] .

وفى الحقيقة ، كانت ظروف ذلك العصر لا تسمح بنجاح أى نوع من أنواع الحكم سوى هذا النوع . وللملاءمة الظروف السائدة ، وللوقوف فى وجه المشاكل السياسية ، ولإرضاء الجماعات الساخطة ، لم يكن هناك رجل ذوجدارة أو ملاءمة سوى معاوية . ولم يكن عمر متملقاً أو مادحا حينما أطلق على ابن أبى سفيان لقب (قيصر العرب)[2] . فقد كان معاوية فى سياسته مقلداً لخلفاء هرقل ، وهو فى هذه السياسة يشبه هارون الرشيد . وحينما امتلأ التاريخ بالأساطير التى تدور حول بطل ألف ليلة ، أصبح هارون ذا شخصية مختلفة ، إذ تصوره ملكا عادلا حكيما . أما عن علاقته بالإمبراطورية البيزنطية ، فتصفه الأساطير بأنه قد انتهب أراضيها ، فقد ركز حملاته نحو آسيا الصغرى ، وهاجم الأراضى البيزنطية ، وخرّب المقاطعات الشرقية بطريقة بربرية . ولم يكن يفوق سرعته ، فى الهجوم سوى سرعته فى الرحيل ، ولم يكن هدفه كما تذكر الأساطير ، نشر الإسلام فى هذه المقاطعات ، إذ لم يكن

---

(١) وصف صاحب (الفخرى) معاوية بقوله : مربى دول وسائس أمم وراعى ممالك ابتكر فى الدولة أشياء لم يسبقه أحد إليها) (المترجم) .

(٢) كان عمر بن الخطاب يقول : « تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية » (الفخرى ص ٩٦ طبعة الموسوعات ١٣١٧ هـ) (المترجم) .

أ كثر من (ناهب) لا يهتم إلّا بأن يعود محمّلا بالكنوز والأموال [1] .

ولكن الأمر يختلف مع ابن أبى سفيان ، فقد فشل فى فتح القسطنطينية ، فقد حاصر العاصمة وكان غرضه الأول أن يحلّ الهلال محلّ الصليب .

واشتهر معاوية بالتسامح الدينى ، وتمتع المسيحيون فى عهده بالامتيازات التى كانت للمسلمين [2] . وكانت شخصية معاوية القوية ضرورية جداً لحل مشا كل ذلك الوقت .

---

(١) كانت غارات العباسيين غرضها الهدم والتخريب ، بعكس الحال زمن الأمويين ، الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين ، ابتغاء احتلال القسطنطينية . وهذا راجع لسببين :

١ — مناوأة أهل الشام للعباسيين تخشى الخلفاء أن يطعنوهم من الخلف .

٢ — لم يكن للعباسيين أسطول ضخم فى البحر المتوسط كما كان للأمويين ، فقد أعتمدوا على الجيوش البريه . (المترجم) .

(٢) من الظلم الواضح أن نتهم المسلمين الأوائل بالتعصب . ويجب علينا أن نتذكر كلمات (فنلى Finly) : لم تكن الحرية الدينية معروفة إلا عند المسلمين » . (Finlay ، vol 1 ، p. 375) . فالاضطهاد الدينى يخالف تعاليم الإسلام ، والقرآن ينص على أنه « لا إ كراه فى الدين » ، ولا نرى فى التاريخ الإسلامى معاملة للمسحيين تشبه معاملة شارلمان للسكسون ، أو معاملة هنرى للسلاف . إن نظرة عابرة لقوانين شارلمان التى طبقت على السكسون تبين كيف خالف أعظم ملك مسيحى شهدته أوربا تعاليم المسيح . (Zeller ، Foundation De L' Emp. German ، pp. 29 – 30) . أما عن إضطهاد المسلمين للمسيحيين فى إسبانيا ، فإن المسيحين فى معظم الأحوال اضطروا المسلمين إلى اتباع مثل هذه السياسة . وقد ذكر (Hines) هذه الحقية فى كتابه =

كان عليّ فارسا شهماً ، يجمع بين الصفات القرشية النبيلة ، و بين فضائل العرب ، ولـكنه لم يتمتع بصفات الحاكم . إن المميزات التى إمتاز بها تؤهله لتوليّ منصب دينى لا وظيفة سياسية . فقد كان قوى البصيرة ، قائداً ضعيفاً ، شديد التدين ، وهى صفات تؤدى إلى سوء حالة المسلمين لا إلى تحسنها .
ولـكن هناك حدث واحد فى تاريخ حياة معاوية يصعب على المؤرخ تفسيره ، وهو عهده ليزيد . فـكيف يتسنى لأب حكيم يدرك عيوب إبنه ، ثم يرشحه ليخلفه ، مما يعتبر واحداً من تصرفاته الشاذة التى يذكرها التاريخ . ولسنا فى حاجة إلى أن نتذكر أن الإمبراطور الفيلسوف (ماركوس أوريليوس)

=(المسيحية والإسلام فى أسبانيا) . فقد تحدث عن الإسلام بتسامح وبروح مسيحية حقة . ويبدو الشعور الإسلامى بوضوح في تلك العبارة الجميلة التى ذكرها عباس الثانى ، أحد المتصوفين الفرس ، إذ قال : إن الله ، ولست أنا ، هو الذى يحكم على ضمائر الناس ، ولن أتدخل فى شىء هو منوط إلى حكم رب العالمين . كما أن أكبر أتبع التعاليم التى وضعها له وزيره أبو الفضل : إن الاضطهاد ينتهى دائما بالإخفاق ، فهو يضطر الناس إلى إخفاء عقائدهم ، لـكنه لا يحدث أى تغيير (Hines , p. 92) . ونصت قوانين شرلمان على حرمان الوثنيين واليهود والسامريين من تولى الوظائف المدنية والعسكرية عـدا الوظائف التافهة . كما منع تعاليمهم واعتبرها هرطقة ، وأمر بجمع كتبهم وحرقها ، ومنعت جميع تعاليمهم وآرائهم (انظر Milman , Latin christianity , p. 34 ، ولم يحدث مطلقاً أن حرم المسلمون المسيحيين من الوظائف ، ونجد عبدالملك يجعل للأخطل ، الشاعر المسيحى ، منزلة عظيمة . وحينما كان المسلمون يفتحون بلداً كانوا يحترمون عقائد السكان . «انظر» كتاب (غزوات العرب فى فرنسا ، ص ٨) تأليف (Reinaud) ، وكثيراً ما كان المسيحيون فى الدولة البيزنطيه يلاقون كثيراً من الإضطهادات ممـا يجعلهم يلوذون بالمسلمين .

وقع فى نفس الخطأ ، فمثله مثل معاوية ، الذى فرض إبنه الخليع ، متناسياً أنه لا يتحلى بفضائل البشر ، مما ألقى ظلالا قاتمة على تاريخ ابيه التقى .

بتولية معاوية ، أصبحت دمشق العاصمة ، وسنتحدث الآن عن العلاقات بين الدولة الأموية والإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى عهد (ليو الأزورى) الذى قامت فى عهده معركة عنيفة بينه و بين الأمويين .

منذ ١١ فبراير ٤٦١ م إلى سبتمبر ٦٤٢ كانت سياسة القسطنطينية تتأثر بدسائس البلاط . و بتولية (كونستانس الثانى) استردّيت هرقل قوته ، ورغم أن الدولة فقدت بعض الجزر الصغيرة ، إلّا أن هذا العهد يعتبر من أزهى عصور القسطنطينية .

فى سنة ٦٣٨ م أصبح معاوية حاكم الإمبراطورية الإسلامية، الممتدة من مصر إلى الفرات . وفى خلال عهده ، قام بأعمال عظيمة . فنى عهده ، بنى المسلمون أول أسطول بحرى ، وهزم الأسطول البيزنطى هزيمة منكرة فى واقعة فونكس Phoenix على شاطئ ليكيا [١] .

فى سنة ٦٤٦ بذل (مانويل) محاولة يائسة لاستعادة الإسكندرية ، كما شاهد هزيمة الجيش الرومانى الذى أرسل لقتال معاوية ،الذى قام بفتح بعض أجزاء آسيا الصغرى وأرمينية .

---

(١) مكانها فينيكى الحالية ويسمى المؤرخون العرب المعركة باسم (ذات الصوارى)(المترجم)

كان إنشاء الأسطول يعود بالفائدة العظيمة على الإسلام . وكانت قبرص (٦٤٩) أول مكان عليه أن يواجه البحرية الإسلامية . ولكن الحملة كان نجاحها محدودا . استولى المسلمون على كونستانتينا ، وهى أكبر المدن ، وقد لاقت الجزيرة كثيراً من الكوارث التى تسببها الحروب ، ثم سقطت مدينة (Aradus) ولكن لم يلحقها التخريب حتى العام التالى. ولكن (كونستانس) إزاء الأحوال الداخلية وتعرّضه لخطر الغزو من جميع الجهات ، رأى أن يهادن معاوية سنة ٦٥١ م .

كان ذلك العهد الذى تخلت فيه الآلهة عن الرومان . فقد استولى المسلمون على أرمينية سنة ٦٥٢ نتيجة غدر (Pasaganthes) الفارسى ، وحاول القائد الرومانى (موريانوس) سنة ٦٥٤ أن يسترد المدينة ، ولكن المحاولة لم تنجح واحتفظ العرب بالمدينة .

وفى نفس السنة ، أضيفت رودس إلى قائمة الفتوح العربية . وكان معاوية واثقا من قوته وموارده حتى أنه فى سنة ٦٥٥ أعدّ حملة جديدة ضدّ الرومان وهزم الأسطول الرومانى الذى كان يقوده كونستانس الثانى بنفسه فى معركة (فونكس) على شاطئ ليكيا .

بعد مقتل عثمان سنة ٦٥٦ كان معاوية مضطرا ليأخذ بثأره . ويمكننا

أن نتحدث عن مسألة مقتل عثمان بإيجاز [1] . فى سنة ٦٥٩ اضطر معاوية إلى أن يعقد هدنة مع الرومان حتى يحفظ قواه لقتال علىّ .

كانت شروط المعاهدة فى صالح الرومان ، لكن ذلك السياسى المسلم لم يتردد فى الوصول إلى هدنة معقولة . فقد تعهد الخليفة بأن يدفع ألف دينار وعددا من الجياد والرقيق طالما كان السلام سائدا .

كان رحيل (كونستانس) عن القسطنطينية إلى آسيا الصغرى للقيام بعدة غزوات بعيدة ، و بين عامى ٦٦٣ و ٦٦٧ قام العرب بغارات مستمرة على الأراضى البيزنطية ، ولكن حتى سنة ٦٥٨ لم يلحق بالإمبراطورية خسارة كبيرة . وفى هذه السنة أعلن (سابور Sabor) قائد الفرق العسكرية فى الجبهة الرومانية الثورة ، وراسل معاوية وعرض عليه التسليم مقابل أن يساعده ضدّ الإمبراطور ، ووافق معاوية على هذا العرض وأرسل إليه جيشا لمساعدته .

ولكن الثائر (سابور) لم يجن ثمار ثورته . فقد سقط من على جواده ولقى حتفه . وأراد قائد الجيش الإسلامى أن يمضى فى تنفيذ الخطة فبعث إلى الخليفة يطلب النجدات ، فأنجده بيزيد ، وتقدم الحلفاء نحو خلقيدونيا واستولوا على كثير من المدن الهامة من بينها عمورية ، ولكن العرب لم

(١) لم يحقق المؤلف وعده بالحديث عن مقتل عثمان (المترجم) .

يتمكنوا من الاحتفاظ بها طويلا ، فقد أستطاع (اندريا Andreas) فى العشر السنوات الأخيرة من نفس القرن ، أن يسترد عمورية ويقتل كل عربى .

حينما ثبت كونستانس الثانى أقدامه فى صقلية ، حاول أن يغير على عرب إفريقية ، فهاجم قرطاجنه وغيرها من المدن ، ولكن العرب كانوا مستعدين لهذه المفاجأة فأستطاعوا صدّ الرومان فى طرابلس .

فى سنة ٦٦٨ قتل كونستانس فى الحمامات التى تسمّى (Dophne) ، وكان مصرع أخيه ومعاملة البابا مارتن الأول ، مما ألقى ظلا لاقائمة على ذكراه ، فقد سلبته كثيرا من المجد والاحترام باعتباره إمبراطورا اهتم بالحضارة والتقدم وصدّ هجوم العرب .

وأثبت قنسطنطين الرابع جدارته ، وأدار دفة الإمبراطورية بحكمة وسط العواصف السياسية . وفى عصره فُتحت كريت ، ولكن فتحها لم يدم طويلا . وأبرز حوادث عهده ، حصار المسلمين للقسطنطينية من سنة ٦٧٢ إلى ٦٧٧ ، ولو نجح هذا الحصار لأدّى إلى تغيير كبير فى الجغرافية السياسية لقارة أوربا . ولكن الهزيمة أضعفت قوة المسلمين . ورأى معاوية ، إزاء هذه الظروف ، أن يعقد هدنة أخرى مع الامبراطورية البيزنطية ، فأتفقوا على عقد هدنة لمدة ٣٠ سنة ، يدفع العرب خلالها ٣٠٠٠ دينار من

الذهب ، وخمسين من الرقيق ، وخمسين من الجياد سنويًا .

بعد وفاة قنسطنطين الرابع ، تولى العرش جستنيان الثانى وكان فى السادسة عشرة من عمره . وكان معاوية قد توفى سنة ٦٨٠ فى حياة (قنسطنطين بوجوناتوس) . وتعرضت الإمبراطورية الإسلامية بعد معاوية لسلسلة من الإضطرابات الداخلية ، وإلى قيام خلافة عبد الملك نجت القسطنطينية من هجوم المسلمين .

تميز عهد يزيد بثلاثة أحداث : انتهاب المدينة ، ومصرع الحسين ، وحصار الكعبة [١] ، وهذه الأحداث لم يغتفر المسلمون ليزيد إقدامه عليها . وفى عهد يزيد أعان عبد الله بن الزبير الثورة .

حكم معاوية الثانى أربعين يوما فقط . ثم خلفه مروان ، وكان يوم أن تولى العرش متقدما فى السن ، وتعرض لخطر هجوم الضحاك بن قيس ، ومصعب أخى عبد الله بن الزبير ، ولكن أخمدت كل من الثورتين [٢] . ويدين الإسلام لمروان بأنه أنجب حاكما مثل عبد الملك .

---

(١) يقصد المؤلف بانتهاب المدينة واقعة الحرة ، وإباحة المدينة للجيش الأموى بقيادة مسلم ابن عقبة ، ويقصد بحصار الكعبة حصار الحصين بن نمير لابن الزبير فى الكعبة (المترجم)

(٢) كان سبب ثورة الضحاك بن قيس عربيا ، فقد جعل معارضته للأمويين على أساس أن معاوية الأول ويزيد قد اختارا زوجاتهما من قبيلة كلب اليمنية وعلينا أن نتذكر أن هذه القبيلة كانت العامل الأول لقيام الدولة الأموية ، وفى خلافة هشام ، ثار القيسيون =

وجد عبد الملك نفسه على رأس دولة فى فترة تحفل بالاضطرابات ، ورغم أن سلطة عبد الله بن الزبير ، قد أصابها بعض الضعف إلاّ أنه مازال يسيطر على بلاد العرب والعراق . وكان على عبد الملك بن مروان أن يبذل كثيرا من الجهود حتى ينفرد بعرش الخلافة . بدأ الخليفة يجاهد جماعة الزبيريين وقد نال من النجاح السريع أكثر مما يبذل من الجهود . ففى العراق ، ضعفت قوة الزبيريين نتيجةً لظهور المختار الذى أعلن أنه نصير أسرة علىّ ويريد تنصيب ابن على ، محمد بن الحنفية ، خليفة . نجح المختار فى أول الأمر فى شن الحرب على الزبيريين الذين كانوا مسيطرين على الكوفة ، حتى لحقت به الهزيمة ، وذبحه كل من مصعب والمهلب[1] . هذا الحدث ، جعل العراق مرة أخرى عند قدمى عبد الله بن الزبير . وهنا نلمس فترة عجيبة فى التاريخ الإسلامى ، فقد كان هناك أربعة يطالبون بالسلطة والخلافة[2] .

عانى الخليفة الأموى كثيراً من سوء الحظ . فقد أحاطت الكوارث بعبد الملك مما جعله عاجزاً عن رسم سياسة محددة . فى الجزيرة ، هُزمت

= فى العراق وخراسان (المؤلف) ــ دعاالضحاك لابن الزبير ثم خدعه زياد بن أبيه فحرضه على الدعوة لنفسه فانفض الناس من حوله ، وثورته تمثل العصبية القبلية بين القيسين واليمنين وقتل فى مرج راهط (المترجم) .

(١) لم يشترك المهلب بن أبى صفرة فى قتل المختار فقد ركز جهوده لقتال الخوارج (المترجم) .

(٢) عبد اللهبن الزبير خليفة مكة ، وعبدالملك خليفة دمشق ، ومحمدبن الحنفية ، والقائد الخارجى نجدة بن عامر (المؤلف) .

القوات الأموية . وفى سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ ـ ٦٨٩ م) حينما غادر عبد الملك دمشق إلى العراق ، وجد نفسه مضطرا للوقوف فى وجه حركة المعارضة التى أثارها عمرو بن سعد الذى أعلن نفسه فى غياب عبد الملك خليفة . و إزاء هذه المشاكل رأى عبد الملك أن من الأفضل أن يكون على صلات طيبة بالدولة البيزنطية ، وكان من نتائج هذه السياسة الحازمة ، أنه اتفق فى سنة ٦٨٥ على أن يؤدى إلى نهاية الأمويين . وفى عهد جستنيان الثانى ، وعبد الملك أيضا [١] ، جُدِّدت المعاهدة التى عُقدت فى عهد أبيه ، مع تخفيف بعض الشروط . فيدفع العرب عشرة آلاف قطعة ذهبية ، إلى جانب الضريبة اليومية وهى جواد وعبد ، فى مقابل السماح للعرب بالسيطرة على نصف مقاطعة أرمينية وقبرص . ولكن أبرز ما استفاده العرب من هذه الشروط هو خلاص العرب من (المردة Mardaites) والتى كانت تمثل الخطر الحقيقى على الحكم الإسلامى فى الشام [٢] . كانت هذه الخطوة البسيطة التى أقدم عليها جستنيان ذات أهمية كبرى بالنسبة للمسلمين . فقد اضطر عبد الملك إلى انتهاج هذه السياسة ، فقد كان عليه أن يواجه ابن الزبير ،

---

(١) جدد عبدالملك مع جستنيان المهادنة التى عقدها مع قسطنطين (Bury , vd. II, p.320)

(٢) Ranke , Weltgeschichte , Vol. V , pp. 188 et Seq.

المردة يسمون أيضا الجراجمة وهم شعب غير معروف الأصل ، عاش حياة نصف مستقلة فى حصون اللكام وكانوا جنداً غير نظامى ووالوا البيزنطيين وعادوا المسلمين (المترجم) ...

وقد حوّل إليه اهتمامه بعد أن صادق الدولة البيزنطيّة . فى العراق ، أدت مساوئ الحكم الزبيرى إلى ازدياد نفوذ عبد الملك . قبل مسير عبد الملك إلى العراق ، استطاع أن يحوز ولاء قواد مصعب . تقدم عبد الملك للقاء جيش مصعب الذى كان معسكرا على مسافة ٣ فراسخ من سهل دير الجاثليق . وحينما بدأت المعركة ، وجد مصعب نفسه وقد هجرته قواته ، ولكن شجاعته لم تخنه . وبعد هذا الانتصار رحبت بلاد العراق بالبيعة لخليفة دمشق . لم يبق إلى جانب الزبيريين سوى بلاد العرب ، ولكن كان ذلك إلى حين . فقد استطاع القائد الشاب الحجاج بن أبى يوسف أن يستولى على الكعبة . شعر عبد الله بن الزبير باليأس ، فقصد أمه أسماء التى نصحته أن يتمسك بشجاعته وأن يلاقى الموت وسيفه فى يده [1] .

وفى ١٤ أكتوبر سنة ٦٩٢ لقى عبد الله بن الزبير حتفه ، وبموته انتهت الثورة الزبيرية .

بعد أن لقى عبد الله ابن الزبير حتفه بسيف الأمويين ، أصبح عبد الملك الخليفة الوحيد . حقا إن محمد بن الحنيفية لايزال على قيد الحياة ، ولكن لم تكن له أهمية سياسيّة منذ مقتل المختار . كان عبد الملك من المحظوظين فعلا ،

(١) للمترجم رسالة بعنوان (حركة عبد الله بن الزبير) نال بها درجة الماجستير من من جامعة القاهره .

فلم تنجح أى ثورة قامت فى وجهه (١) . فقد ركنت الخوارج فى عهده إلى الهدوء (٢) ، كما انتهى أمر ابن الأشعث ، الذى أعلن نفسه خليفة فى سجستان ، بأن هزمه يزيد ابن القائد المشهور المهلب (٣) .

بعد أن تخلّص عبد الملك من المشاكل التى كانت تهدد سلامة الإسلام وبعد أن هزم أعداءه ، عاود سياسة الفتح . وكان الرومان حينئذ لاينظرون إلى المعاهدة التى وقعها عبد الملك بعين الاحترام . فقد نقض (ليوناتوس Leonatus) قائد الفرق الأناضولية المعاهدة ، وانتزع ألبانيا ورومانيا من المسلمين ، مما أدى إلى نشوب العداء بين الفريقين ، ولكن عبد الملك كان مشغولا بمشاكله الداخليّة عن ردّ هذه الإهانة .

وفى عهد جستنيان الثانى ، أدّى تغلبه على البلغار فى سنة ٦٨٩ أو سنة ٦٩٠ إلى عواقب وخيمة . إذ اعتمد على الأسرى السلاف فى إنتاج محاصيل وفيرة ، وبدأت سياسة عدائية ، إذ رفض أن يتسلّم العملة العربية التى نقش عليها آيات قرآنية (٤) .

---

(١) كان عبد الملك محظوظا فعلا ، فقد خلصه عبيد الله بن زياد من التوابين ، وخلصه مصعب بن الزبير من المختار ، وتمكن عبد الملك من القضاء على مصعب وأخيه عبد الله (المترجم)

(٢) لم تسكن الخوارج فى عهد عبد الملك فقد عانى الحجاج بن أبى يوسف طوال حكمه فى العراق من هجوم الخوارج وقد تمكنوا بزعامة شبيب من دخول الكوفة (المترجم) .

(٣) أنظر كثيرا من التفاصيل عن ثورة ابن الأشعث فى كتاب المترجم (تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى) ـ (المترجم) .

(٤) يذكر المقريزى أن العرب قبل عهد عبد الملك نقشوا عملة تشبه العملة الرومانية أو =

حاول عبد الملك دون جدوى أن يعترض على هـذه السياسة العدائية ، وأخيرا رأى أن يحكّم السيف . وفى قيلقيا ، قرب سباستبول ، دارت معركة حامية . وأثبت السلاف خيانتهم بينما أثبت العرب قوتهم . كان النّصر حليف العرب ، وهرب جستنيان وقد عصف به الغضب .

كانت النتيجة الحاسمة لهذا الانتصار ، الإستيلاء على جنوب أرمينية[١] ، وكذا قبرص التى كانت قـد شهدت أرضهـا المسلمين ، وقد تم لهم الإستيلاء عليها .

وفى ذلك الحين ، تعرضت الإمبراطورية البيزنطية إلى كثير من المغامرات . قبل عودة جستنيان ، تولى (اليونانوس) (وتيبريوس) العرش . وشهد هذا العهد ضياع قرطاجنه وإفريقيّة .

بنى عقبة مدينة القيروان سنة ٦٧٠ [٢] . استولى المسيحيون عليها سنة

= الفارسية مع إضافة أسماء أو نقوش عربية وفى سنة ١٨ هـ ضرب عملة على هذا الشكل الذى ذكرناه . ويذكر المقريزى أن عبد الملك رغم أنه ضرب عملة إلا أنه نقش صورته ممتشقاً سيفه مما أدى إلى اعتراض المسلمين . فضرب عمـلة أخرى بعد سنة ٦٧ هـ ، وهى العملة الإسلاميـة المعروفة (انظر بحث دى ساسى فى المجـلة الآسيوية وانظر : (Gibbon , VI , p. 378)

(١) كتب الأسـتاذ (بيورى Bury) بحثاً قيا عن العلاقات العربيـة بأرمينية (Vol. II , p. 322)

(٢) انظر (Finlay , p. 382)

٦٧٦ ، لـكن العرب استردوها بقيادة الزبير ، ثم استعادها المسيحيون سنة ٦٨٣ ، ولـكن حسان بن نعمان إستردها نهـائياً سنة ٦٩٧ . منح حسان شاطىء افريقية لقرطاجنه ، ولـكن مالبث أن هزمه (يوحنا) . ولـكن انتصار يوحنا كان مؤقتا ، إذ طرد موسى بن نُصير الإغريق من قرطاجنه والشاطىء الإفريقى ، وامتّدت انتصارات موسى إلى تلمسان . وأدت هزيمة الرومان فى قرطاجنة إلى اهتزاز عرش (اليوناتس) فقد استطاع (تيبريوس) أن يخلعه . ولـكن الموقف تغيّر ثانية ، فما يثير دهشتنا أن نجد الرومان قد قاموا بغارات على شمال سوريا ، وحاز هرقل ، أخو تيبريوس ، انتصارين حاسمين على العرب سنة ٧٠٢ وسنة ٧٠٣ م . ولـكن المسلمين لم ينهزموا على طول الخط . فقد ردّ المسلمون على غارة الرومان سنة ٧٠٠ بالاستيلاء على إقليم الجزيرة وجزء من أرمينية . وفى السنة التى عاد فيها جستنيان من منفاه ، مات عبد الملك[1] . وشغل جستنيان طوال ستة سنوات بمـذابح رهيبة ، واتبع سياسة انتقامية .

لم تكن الخسارة التى لحقت بالإمبراطورية البيزنطية شديدة الخطورة ، وإن كان العرب قد استولوا على (Tyana) خلال تلك الفترة . وفى سنتى ٧١٠ و ٧١١ تعرضت الإمبراطورية لعدة غارات وهجومات . وبعد أن انتهت حماقات

---

(١) مات فى ٨ أكتوبر ٧٠٥ م .

جستنيان بوفاته ، تولى العرش ثلاثة قياصرة ضعاف ظالمين حتى بدأ عهد جديد بتولية (ليو الأزورى) . وكانت الدولة البيزنطية فى هــذه الفترة ، فى حالة سيئة . فقد كان البرابرة يهددون أطراف الدولة ، وهناك أيضا غارات البلغار ، كما استولى السلاف على سالونيك ، وكانت آسيا الصغرى تحت رحمة المسلمين بعد استيلائهم على (Tyana) .

خلف عبدالملك خليفتان قويان ، هما الوليد وسليمان . فى عهد الوليد اتسع النفوذ الإسلامى إلى حدّ كبير ، وكان أبرز الفتوحات الإسلامية فتح إسبانيا[1] . وإستولى المسلمون على (أمازيا) فى جبال بنطس سنة ٧١٢ وعلى أنطاكيه فى سنة ٧١٣ . وفى عهد الوليد استعد المسلمون لحصار جـديد للقسطنطينية . واستعد (أنستاسيوس الثانى) تماما لصدّ هذا الخطر . ولـكن الإمبراطور لم يتمكن من الانتصار على المسلمين ، كما أن المسلمين لم ينجحوا فى فتح القسطنطينية . ولـكن وفاة الوليد لم تحل دون تنفيذ المشروع ، فقد شجعت الفوضى والاضطرابات فى القسطنطينيه سليمان بن عبدالملك (٧١٥ ـ ٧١٧) على القيام بهجوم عنيف . أرسل سليمان جيشين إلى رومانيا ، أحدهما تحت قيادة أخيه مسلمة والآخر بقيادة قائد يحمل اسم الخليفة . حاصر سليمان عموريه ، لـكن (ليو) نجح فى فك الحصار بمهارته الحربية والدبلوماسية .

(١) إقرأ ما كتبه ابن خلدون عن تاريخ البربر (المؤلف) .

وبينما كان الجيش الإسلامى يواصل زحفه ، أعلن القائد الأسورى نفسه إمبراطورا سنة ٧١٧ ، وفاز بولاء الناس بعد أن أنقذهم من الهجوم . وفى نفس الوقت ، تقدم مسلمة زاحفا فى آسيا الصغرى دون أن يلقى مقاومة تذكر . وبعد أن استولى على (برجاموس) تقدم إلى (أبيدوس) وفى أول سبتمبر انضم إلى سليمان الذى قدم على رأس ١٨٠٠ محارب .

عسكر المحاصرون حول القسطنطينية فى أول أغسطس ٧١٧ ، وبعد حصار غير مثمر استمر ١٢ شهراً فكوا الحصار دون خسارة تذكر . فقد استعد ليو استعداداً كبيراً ، كما أن الشتاء كان لسوء الحظ قارساً . كانت الطبيعة القاسية والنيران الإغريقية سبباً لتحطيم آمال المسلمين .

كان حصار سنة ٧١٨ أكثر قوة من الحصار الذى عانت منه القسطنطينية فى عهد (قنسطنطين بوجوناتس) وقد جعلت هذه الغارة الإسلامية العنيفة مسئولية (ليو) كبيرة بإعتباره حامى الإمبراطورية البيزنطية .

بعد هذه المحاولة من المسلمين ، بدأت فترة هدوء . فقد انشغل الخليفتان عمر الثانى ويزيد الثانى بالأخطار التى تهدد العالم الإسلامى عن القيام بفتوح أو غارات على الدولة البيزنطية . وفى عهد الخليفة عمر الثانى بدأت حركة المعارضة ضد الأمويين والتى انتهت بالنجاح وحطمت الدولة التى أسسها ابن أبى سفيان .

استطاع الخليفة هشام أن يتغلب على المؤامرات التى قامت فى وجهه ، واستطاع أن يقبض على زمام الأمور ، ويخلص الدولة من الأخطار التى كانت تهددها . تولى هشام عرش الخلافة سنة ٧٢٤ ولكنه لم يتخذ خطوة نحو الدولة البيزنطية إلّا فى سنة ٧٢٦ حيث واجهت هذه الدولة غارات سنوية بقيادة القائدين سليمان ومعاوية .

شهدت سنة ٧٣٩ آخر الإشتباكات بين الأمويين والدولة البيزنطية . فقد أعدت حملة قوية تولى قيادتها أربعة قواد لمهاجمة الدولة البيزنطية من جهات متفرقة . قام سليمان بالهجوم على الجزء الغربى من طوروس بينما قام قائد آخر بالهجوم على (كابادوكيا) ، وقام مالك بالهجوم على غرب الأناضول ، وتقدم (ليو) مع ابنه وولى عهده قنسطنطين حيث أنزلوا بالعرب هزيمة فى (أكرنيون) جنوب (دوزيليم) .

وبهذه المعركة ، توقف عداء الأمويين لقياصرة القسطنطينيّة طوال عهود خلفاء ثلاثة هم الوليد الثانى ويزيد الثالث ومروان الثانى الذين كانوا مشغولين بالدعوة العباسية عن توجيه ضرباتهم إلى المسيحيين ، وحتى قيام الدولة العباسية ظل كل من المسلمين والمسيحيين مشغولين بمشاكلهم الداخلية .

فى خلال العصر الأموى ، لاقى المسلمون انتصارا بعد انتصار فى الميادين الحربية ، ولو كان الأمويون قد تمتعوا بفترة من الهدوء السياسى لتمكنوا من

القضاء على نشاط العباسيين . ويدين الإسلام للدولة الأموية أنها استطاعت أن تنشره فى أقاليم بعيدة من العالم حيث رحب به أهلها وعاشوا فى ظله[١] .

وأبعد من هذا ، فإنه يجب أن نتذكر أنه على الأسس التى وضعتها الدولة الأموية ، شاد العباسيون مجدهم ، ذلك المجد الذى لم يكن مقصوراً على العظمة السياسية ، بل كان يشمل النهضة الثقافية والاجتماعية عند المسلمين .

---

(١) أنظر عدد يوليو من (Asiatic Quarterly Review 1901) تجد بحثين هامين يتناولان هذا الموضوع : بحث لفلهوزن بعنوان : Das Arabische Reich und Sein Sturz › وبحث للدكتور بتلر عن فتح العرب لمصر . والبحث الأخير ألقى ضوءاً عظيماً على الفتح الإسلامى لمصر وغير كثيراً من الآراء .

أهل الذمة في الإسلام

بينما كانت فرنسا وألمانيا تصدر البحث تلو البحث حول الدراسات الشرقية عامة والموضوعات الإسلامية خاصة ، كانت إنجلترا لا تبدى اهتماماً بمثل هذه الدراسات . ومما يدعو إلى العجب ما نعرفه عن علاقات الصداقة بين إنجلترا والأقطار الإسلامية . وكان بداية اهتمام إنجلترا بالدراسات الشرقية فى أواخر القرن ١٨ ومطلع القرن ١٩ محدوداً . ولكن بعد ذلك بفترة رأينا بين الكتّاب الإنجليز ميلاً ملحوظا ليبيّنوا للعالم استبداد الخلفاء ، وأن الإسلام يؤدى إلى نشر الرذائل ، وإلى اضطهاد غير المسلمين .

ولننتقل الآن إلى الكتاب الذى ألفه (سل Sell) تحت عنوان (مقالات حول الإسلام)[1] ويشمل أبحاثا تدور حول موضوعات إسلامية . وقبل كل شئ نقول إن هذه الأبحاث لا تقرّبنا ولو خطوة واحدة من الحقائق المعروفة . كما لا يمكننا أن نقول إن كتابه يخلو من النقائص التى نلمسها فى مؤلفات كاتب متعصب لقد تناول الموضوع لا ليجلو الحقائق ولكن ليعدد

---

(١) Essays on Islam by Rev. E. E. Sell, S. P. C. K., Press, Madras.

الاتهامات المختلفة الموجهة للإسلام . كان هدفه أن يحقق مظالم المسلمين وأن الإسلام لا يتفق مع تقدم الحضارة . أما الحقائق التى ذكرها ، فنعتقد أنه اعتمد على ماذكره (ڤون كريمر) فى كتابه عن الحضارة الإسلامية . ولكن وبكل أسف ، فنحن مضطرون أن نذكر أن (سل) لم يكن له القدرة على البحث ، كما لم يتميز بسعة الأفق ، كما لم يكن له العاطفة النبيلة التى تميز بها المواطن الألمانى .

قال (سل) فى الصفحة الثانية : « شهد القرن الثالث مجادلات الزنادقة والمعتزلة فى ذروتها » . وإننا لا نستطيع أن نفهم ماذا يعنى المؤلف المثقف (بمجادلات الزنادقة) . إن كلمة زنديق نجد تفسيرها فى (كتاب المُغرب) ، وتطلق كلمة زنديق بصفة عامة على الشخص الذى يُنكر الحياة الآخرة وخلود الروح ، وأن الله واحد . ويذكر (ثعلب) أن كلمة زنديق ليست عربية وتدل على الهرطقة وتطلق على الرجل الملحد . وفى كتاب (مفاتيح العلوم) جاء أن الزنادقة يشبهون أتباع مانى ، كما كان يطلق أيضا اسم زنادقة على أتباع مزدك . ولا شك أن استعمال كلمة (زنديق) تكون خطأ لو كان للمؤلف (سل) يعنى بها ماشهده القرن الثالث من مجادلات حول خلود الروح والتوحيد . وكما

يتضح لنا من دراساتنا ، لا توجد مجادلات يمكن أن نسميها (مجادلات الزندقة)[١] .

أما بحثه عن أتباع بابك[٢] فهو ملخص عن بحث (بروان) الممتاز الذى يتناول الدراسات الفارسية ، ولا مجال لمناقشته هنا . ويمكننا ، بدون تردد ، أن نوصى القارئ بقراءة هذا البحث الموجز الجيد .

فى صفحة ١٨٧ يعدد (سل) سياسة عدد من الخلفاء نحو غير المسلمين ، ممّا يبيّن بوضوح أنه أراد أن يبين السياسة الظالمة والصعوبات التى عانى منها غير المسلمين فى ظل الحكم الإسلامى . ولنتوقف قليلا لنبحث الوضع الحقيقى لغير المسلمين تحت حكم سادتهم المسلمين . ويحسن بنا أن نبدأ بعصر الرسول ، يوضح سياسة الرسول معاملته لأمير (أيله) المسيحى : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أَمَنَةٌ من الله

(١) الزندقة عدة معان تختلف باختلاف العصور : كان العرب يعتبرون الزنديق من ينفى وجود الله سبحانه أو ينكر حكمته أو يقول إن له شريكا . وقيل إن الزنديق من يبطن الكفر ويظهر الإيمان . وأطلق اللفظ على من يتأثر بالفرس فى عاداتهم ويسرف فى المجون ، ثم أطلق على المؤمنين بالمانوية والثنويه أى عبادة إلهين ، وفى العصر العباسى أطلق على من ينكر الألوهية أو يتظاهر بالظرف (المترجم)

(٢) يرى بعض المؤرخين أن بابك الخرمى من سلالة أبى مسلم الخراسانى ، وأنه ثار فى وجه العباسيين لينتقم لأبى مسلم ، وأن حركته استمرار لحركة المقنع الخراسانى والراوندية وغيرهم . فى عهد الخليفة المعتصم سيطر بابك على أذربيجان وساعده ملك أرمينية والإمبراطور البيزنطى وبث الرعب فى البلاد الواقعة بين أذربيجان وإيران ، وقبض عليه المعتصم وحاكمه ثم قتله (المترجم) .

ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحلّ أن يُمنعوا ماء يردونه .ولا طريقا يريدونه من برّ أو بحر »[١] . وإننا لا نجد هنا كلمة واحدة تستحق النقد . ولنذهب إلى أبعد من هذا ، هل كان الخلفاء الأوائل يفرّقون فى الامتيازات بين المسلمين وغير المسلمين ؟ يجيب التاريخ على هذا السؤال بالنفى الجازم . ولنذكر أن عمر ، كان قاتله غير مسلم ، ولكن رغم ذلك امتلأ قلب عمر بالرحمة ونبذ التعصب الجنسى ، فجاء فى وصيّته لمن يخلفه ، توصية باحترام المعاهدات الممنوحة لغير المسلمين ، فلا يشن خليفته عليهم حربا وألا يفرض عليهم قيوداً[٢] .

ومرة أخرى يجدر بنا أن نغلق عيوننا عن حقيقة ، هى أن أهل الذمة ظلوا عدة سنوات يديرون المصالح الحكومية التى تدبر مالية الدولة وإيراداتها كما كانت الوظائف فى هذه المصالح مقتصرة عليهم ، مما أثار غيرة المسلمين كان أبرز الموظفين فى عهد الخلافة اثنان : الوزير والكاتب ، وقد تولى ، فى عهد

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٠ — ١٨١ (المترجم) .

(٢) أنظر (Gibbon , Bury 'sed. , vol. V , p. 539) .

أكثر من خليفة ، غير المسلمين هذين المنصبين . كان كاتب عبد الملك (ابن سرجيون) مسيحيا ، كما تولى أبو إسحاق الصابى نفس المنصب فى العصر العباسى . كما كان نصر بن هارون وزير عضد الدولة مسيحيا . وعلى من يوجه النقد إلى الإسلام أن يعرف أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر بن محمد يأمره برفع الظلم عن المسلمين والذميين وأن يعيد إليهم ممتلكاتهم المغتصبة [1] . وفى هذا المجال لايسعنا إلا أن نذكر حادثة تتعلق بكنيسة (القديس يوحنا) فى دمشق ، ونستند فى روايتها على كتاب (فتوح البلدان) للبلاذرى (ص ١٢٥) ، وهى تدل على معاملة المسلمين ، ونستطيع أن نقول فى اطمئنان إن العرب لم ينتهجوا سياسة « انتزاع الملكية » ولم يستعملوا القوة فى الأقاليم التى يحكمونها طالما السياسة أجدى .

---

(١) تميز عهد عمر بن عبدالعزيز — رغم افتراءات المستشرقين — بالتسامح مع أهل الذمة. فنفى بارتولد (تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٧١) عن عمر منعه النصارى من بناء كنائس جديدة وإصلاح الكنائس القديمة . كما ذكر دوزى (نظرات فى تاريخ الإسلام ص ٤٠٢) أن المسلمين لم تتمسك بتنفيذ شرط تجديد الكنائس التى تهدم . والحقيقة أن أهل الذمة تمتعوا بالكثير من عدل عمر ورحمته ، فقد أمر عماله بألا يهدموا كنيسة أو بيعة أو بيت نار صولح أهل الذمة عليه . كما نهى عمر عامله على الكوفة عن اتباع سياسة الحجاج التى تقضى بإرجاع أهل الذمة إلى قراهم . وكتب عمر إلى عامله بالكوفة أيضاً أن يعطى أهل الذمة مابقى من خراج الكوفة فيسدد ديونهم ويساعد من أراد الزواج منهم ، ثم ختم رسالته بقوله : « قوّ أهل الذمة ، فإننا لانريدهم لسنة ولا لسنتين » . وكان عمر يجعل صدقات بنى تغلب فى فقرائهم دون ضمها إلى بيت المال — أنظر كتاب تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى من تأليف المترجم — (المترجم) .

روى البلاذرى : « ولما ولى معاوية بن أبى سفيان أراد أن يزيد كنيسة يوحنا فى المسجد بدمشق ، فأبى النصارى ذلك فأمسك ، ثم طلبها عبد الملك بن مروان فى أيامه للزيادة فى المسجد و بذل لهم مالا فأبوا أن يسلموها إليه ، ثم إن الوليد بن عبد الملك جمعهم فى أيامه وبذل لهم مالاً عظيما على أن يعطوه إياها ، فقال : لئن لم تفعلوا لأهدمنها ، فقال بعضهم : ياأمير المؤمنين إن من هدم كنيسة جن وأصابته عاهة فأحفظه قوله ودعا بمعول وجعل يهدم بعض حيطانها بيده وعليه قباء خز أصفر ، ثم جمع الفعلة والنقاضين فهدموها وأدخلها فى المسجد . فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكى النصارى إليه مافعل الوليد بهم فى كنيستهم ، فكتب إلى عامله يأمره برد مازاده فى المسجد عليهم ، فكره أهل دمشق ذلك فقالوا : نهدم مسجدنا بعد أن أذنّا فيه وصلينا ويرد بيعة . وفيهم يومئذ سليمان بن حبيب المحاربى وغيره من الفقهاء ، وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت فى أيدى المسلمين على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا و يمسكوا عن المطالبة بها فرضوا بذلك وأعجبهم ، فكتب به إلى عمر فسره وأمضاه »(١) .

أما مهلة العباسيين للمسيحيين فهى معروفة جيدا وغنية عن التعريف .

---

(١) رجعنا إلى كتاب (فتوح البلدان) للبلاذرى ص ١٣١ ـ ١٣٢ طبعة المطبعة التجارية ١٩٣٢ (المترجم) .

ففى عهد المنصور سمح لمسيحي (جنديا سابور) بالدخول فى قصر الخليفة ، وعومل المسيحيون عامة بالاحترام والتقدير . فى كتاب (موللر Muller) (١) يجد القارئ كثيرا من التفاصيل عن أخبار المسيحيين فى جنديا سابور . ولا محل هنا لذكر التفاصيل . تلمع أسماء هارون والمأمون فى الأدب مما يجعلنا نتحدث عنهما ، فنقول إنه كان هناك رجال مسيحيون برزوا فى بلاط الخلفاء العباسيين ، أمثال : جبريل ، سلاميه ، وحنين بن اسحق ، يوحنا بن ماسويه ، اسحق الصابى (٢) .

أما الخليفة المعتضد الذى لم يكن يسمح لأحد ، مهما كانت منزلته ، بأن يجلس فى حضرته ، فقد أعطى هذا الحق لوزيره الذمى ثابت بن قرة . كان المتوكل حقيقة أول خليفة يفرض على المسيحيين واليهود أن يرتدوا أزياء تختلف عن أزياء المسلمين ، ولكن يجب ألا ننسى أن ذلك الخليفة هو الرجل الذى اعتدى على قبر الحسين وخالف أبرز تعاليم الإسلام ، فهل يمكن أن نعتبره نموذجا لمعاملة قادة المسلمين ؟ فقد أدت أعماله الشيطانية إلى اشتهاره بأنه رجل فاسد . وفيما يتعلق بهذا الموضوع ، يجدر بنا أن نتذكر أن المسلمين

---

(١) Islam im morgan-und abendland.

(٢) تمتع اليهود والمسيحيون فى العصر العباسى الأول بالحرية الدينية وشهدت بغداد — العاصمة الجديدة — كثيرا من الأديرة والكنائس ، وكان أهل الذمة يقيمون شعائرهم الدينية فى أمان وسلام ، بل كان بعض الخلفاء يحضرون مواكبهم وأعيادهم (المترجم) .

تعلموا من الشعوب المغلوبة كل ما استطاعوا أن يتعلموه ، عدا مما كانتهم فى عاداتهم وملابسهم [1] ، وإن كان هناك بعض الخلفاء قد اقتبسوا بعض أزيائهم وسلوكهم ، وخير مثال على ذلك المأمون والمعتصم بالله . بل إن صلاح الدين الذى جمع بين الصفات الدينيّة والحربية ، أحاط نفسه بعدد من المسيحيين . وكانت معاملته الطيبة لخصمه رتشارد ملك إنجلترا ، وعطفه على الأوربيين الذين أحتك بهم ، مما جعله المثل الأعلى و بطل عالم العصور الوسطى . بل إن الشاعر المسيحى (دانتى) ، شاعر فلورنسا ، يجعل لصلاح الدين مكانا فى السماء ، بينما يجعل مكان القسطنطينية فى الجحيم . ومما يجدر بنا ذكره أن المنشدين المسيحيين كانوا ينشدون أغنيات يمدحون فيها صلاح الدين ، وتحدث مؤرخو العصور الوسطى عنه باعتباره الرجل الذى لا يخلّ بوعده ، وذلك فى عصر كان المسيحيون ينكثون فيه جميع اتفاقياتهم التى يعقدونها مع المسلمين .

(١) اشترط عمر بن الخطاب على أهل الذمة ، لبس الزنار ، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين فى ثيابهم وسروجهم ونعالهم ، وأمرهم أن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات ، وأن تكون قلانسهم مضربة ، وأمر عمر بمنع نساء أهل الذمة من ركوب الرحائل ، وغرضه سهولة التمييز بين أهل الذمة والمسلمين العرب ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى والى العراق : « مروا من كان على غير الإسلام أن يضعوا العمائم ، ويلبسوا الأكسية ، ولا يتشبهوا بشىء من الإسلام » وكتب رسالة أخرى : « لا يركب نصرانى سرجا ، ولا يلبس قباء ولا طيلسانا ولا سراويل ذات خدمة ولا يمشين بغير زنار من جلد . . . » (المترجم) . . . . . .

قال الله تعالى : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا)[١] . هذه الآية تمثّل بها الحكم بن عبد الرحمن حينما طلب فرسانه منه أن يشن الحرب على مسيحيي قليقيا ، وقارن هذا بقرارات مجلس (كونستانس) التى تقر أعمال (سيجسموند)[٢] .

نأمل أن نناقش هذا الموضوع على نطاق أوسع فى فرصة أخرى ، ولكن نضيف كلمات أخرى قليلة . توقعنا أن يعطينا (سل Sell) فصلا عن تأثير علم اللاهوت المسيحى على الفلسفة والدراسات الإسلامية . أما بحث (سل) عن القرآن فإنه يستحق إهتمام القارئ .

نضيف إلى ماذكرنا ، أنه عند تناول أى موضوع ، علينا أن ندع جانبا عواطفنا وتعصبنا ، وننظر إليه نظرة عادلة ، وفى أناة . وإن لم تتحقق هذه الأمور ، فإن التاريخ ينحدر بحيث يصبح أدبا شعبيا يقوم على الجدال . قال (فوستل دى كونلانج)[٣] : « لست أنا الذى أتكلم ، بل الوثائق هى التى تتكلم » . ويجب أن تظل شخصية المؤلف بعيدة عن الموضوع إذا أراد لكتابه أن يصبح بعيدا عن التعصب ، هادفا .

---

(١) سورة الإسراء (المترجم) .
(٢) Walker : Law of Nations, p. 78.
(٣) Fustel de Conlanges

الوزارة والحكومة فى ظل الخلافة

إن تاريخ الوزارة والحكومة فى ظل الخلافة يبدو لأول وهلة فريدا ، وعند دراستنا لتاريخ هذين النظامين نلاحظ أنواعا كثيرة من التغييرات التى تقتضيها الظروف السياسية من وقت إلى آخر .

كان نفوذ هذين المنصبين يعظم أو يضعف تبعا لقوة الخليفة أو ضعفه . و إذا نحن رجعنا بالتاريخ إلى الوراء ، واستعدنا تاريخ عهد أبى بكر وعمر ، لوجدنا أن دولاب الإمبراطورية الوليدة فى أيدى هذين الرجلين ــ القيصر والبابا فى شخص واحد ــ وكانت كلمة كل منهما أقوى من القانون ، وكانت أوامرهما أكثر وزنا من أوامر أكاسرة الفرس وقياصرة البيزنطيين ، فيخضع لهما القواد المنتصرون ، والنبلاء الفخورون ، والولاة البارزون ، و يطيعون جميعا أوامرهما .

ولكن بمرور الزمن ، بدأت العامة تلعب دورا فى حياة الدولة ، العامة والخاصة . وفقد المسلمون ، شيئا فشيئا ، صفاء الأخلاق ، وقوة الشخصية ، و بساطة الأهداف ، وأصبحوا يرمون إلى نوال الشهرة أو الثروة بشتى الطرق . وأدى اتحادهم إلى أن يحوزوا فى فترة قصيرة إمبراطورية أعظم اتساعا

من امبراطورية الإسكندر أو قيصر أو شرلمان أو نابليون . أصبح الخلفاء ضعفاء ، مترددين ، مترفين . وبدلا من قيامهم بأمور الحكومة ، انصرفوا إلى النساء ، وظلوا بعيدين عن تطورات الأحداث فى العالم . واستبد الوزراء ، نتيجة ذلك ، بسلطات الخليفة ، كما أهمل ولاة الولايات البعيدة أوامر الخليفة وتناسوا ولاءهم له . وفقد البيت الأموى سريعا قوته وحيويته بعد الخليفة عمر الثانى [١] . فقد كان يزيد الثانى مدمناً على الخمر ، كما كان الوليد الثانى منهمكا فى ملذاته . أما هشام ومروان [٢] أبرز الخلفاء فى أواخر الدولة الأموية ، فقد استطاعوا أن يطيلوا عُمر الخلافة ، ولكن جهودهم ضاعت هباء . ولم يكن البيت العباسى أسعد حظا . فبعد المأمون ، أخذ مجد العباسيين يخبو ويتضاءل . وأصبح الخلفاء إما أتقياء غيورين على دينهم ، أو عابثين منصرفين إلى ملذاتهم . وحينما انعكست ظلال الموت على الدولة العباسية ، ظهر المكتفى [٣] الذى بعث فيها الحياة والقوة . ولكن مجد

---

(١) يقصد المؤلف الخليفة عمر بن عبد العزيز (المترجم) .

(٢) يقصد المؤلف الخلفاء : يزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ، ومروان بن محمد (المترجم) .

(٣) تولى الخليفة المكتفى بالله بعد وفاة أبيه المعتضد (٢٨٩ هـ = ٩٠٢ م) ولا نستطيع أن نصف الدولة العباسية فى عهده بالقوة فقد كانت السلطة الحقيقية فى يد وزيره القاسم بن وهب ثم خلفه الوزير العباس بن القاسم ، وكان السامانيون أصحاب النفوذ المطلق فى فارس ، وازداد خطر القرامطة على بغداد والبصرة ، وفى سورية بزعامة زكرويه ، وهاجوا قوافل الحج ، ولكن المكتفى كان حسن السيرة محبوبا عند رعاياه وإن كان مبذرا مسرفا ، اشتهر فى عهده العلماء عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وثعلب ، والبزاز والترمذى (المترجم) .

العباسيين كان إلى حين . فقد كان الهجوم المغولى ، الذى حطم الحضارة الإسلامية ، وشيك الحدوث . و بعد أن استولى المغول على بغداد (١٢٥٨ م) دخل المسلمون فى عهـد خبا فيـه النوار وازداد الظلام ، ولـكن النور لم يختف تماما .

ولنناقش هـذا الموضوع . إلى عهد قريب ، كان الاعتقاد السائد أن كلمة (وزير) كلمة عربية[(١)] . ولـكن الدراسات اللغوية الأخيرة أثبتت ، بدون شك ، أنها كلمة فارسية قديمة ، ولها مترادفات فى اللغتين البهلوية والأرمنية . يمكننا أن نفترض أن نظام الوزارة ، الذى قام نتيجة للحاجة إليه ، نظام عربى ، ولـكن التاريخ يرينا أنه كان كزهرة أصلها فارسى ، و إن كانت قد نبتت بين المسلمين ، فى وقت بدأ النفوذ الفارسى فيه يصبح ملحوظا محسوسا . وكانت الوزارة أحد النظم الفارسية[(٢)] .

---

(١) الوزير كلمة مشتقة من الوزر وهو الثقل ، لأن الوزير يحمل أعباء الحكومة ، أو من الوزر وهو الملجأ والمعتصم ، بمعنى أنه يلجأ إليه و يرجع إلى رأيه وتدبيره . والوزارة فارسية الأصل وليست من مستحدثات الإسلام ، بل هى أقدم عهدا من ملوك آل ساسان ، فقد عرفت فى بنى إسرائيل . لم ترد كلمة الوزارة فيما نعرف من كلام العرب فى الجاهلية شعرا أو نثرا ، وقد ورد فى القرآن أحد مشتقاتها وهو قوله تعالى على لسان موسى (واجعل لى وزيرا من أهلى) وظل هـذا اللفظ غير مستعمل فى فجر الإسلام وفى صدره إلى أن جاءت الدولة العباسية فاستعمل (المترجم) .

(٢) أثناء كتابتى لهذه المادة اطلعت على بحث (Emger) الممتاز فى الجزء الثالث عشر من (Z. D. G.) تحت عنوان (Ueber Das Vazirat) . كان أبو سلمة أول من تلقب بلقب (وزير) فى عهد السفاح (المؤلف) .

في كتاب (آداب الوزارة) فقرة لها أهميتها ، فقد جاء فيها أن الأكاسرة الفرس كانوا يولون وزراءهم من التشريف ، مالم يوله ملوك آخرون لوزرائهم . وجاء فيه أيضا : الوزير هو مدبّر شئوننا ، وزينة مملكتنا ، وهو لساننا المعبر ، وسلاحنا الذى ندخره عندما نتأهب للهجوم على أعدائنا فى أقصى الجهات . هذه العبارة تثبت حقيقة أن منصب الوزارة قد قام فى فارس ، وتبيّن مدى اتساع قوته ونفوذه . إن الصورة الواضحة لهذا الموضوع تبدو فى كتاب (الجوهرى) فقد تحدث عن موظف كبير يسمى (ردف) فذكر أنه إذا جلس الملك سمح لوزيره بالجلوس فى حضرته ، وإذا خرج الملك للقتال قام الوزير مقام الخليفة وقام بواجباته حتى يعود ، حتى إذا عاد الجيش كان له ربع الغنائم[1] .

فى مملكة الحيرة على التخوم الفارسية ، كانت الوزارة فى بيت (ياربو) بناء على معاهدة اعترف فيها أيضا بحقوق عرش الحيرة . ولدينا دليل آخر يثبت أن أصل الوزارة فارسى ، وهى أنها كانت بالوراثة . فقد ذكر (بروبوكيس Pro pocius) أن الوظائف فى ظل الحكومة الفارسية كانت وراثية . وارتباط الحيرة بفارس واعتمادها عليها يضيف دليلا آخرا على أن أصل الوزارة فارسى إذ أن الحيرة لم تستطع أن تتخلص من التأثيرات الأجنبية . وحينما انتشر الإسلام أصبح اسم هذا الموظف الكبير (وزير) بدلا من

---

(١) ابن قتيبة ص ٣٢٠ (المؤلف) .

(ردف) . ولا شك أن كلمة (وزير) تداولت على ألسنة العرب ، فى مناسبات كثيرة قبل ظهور الإسلام [1] . ونجد هـذه الكلمة فى القرآن فى سورة ٢٠ (آيات ٣٠ ــ ٣٥) ، وهى (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) [2] . هـذه الآيات تبيّن واجبات الحكومة ، وتحث أوليـاء أمور المسلمين على إنشاء وظيفة الوزارة ، بل يمكننا أن نقول إن تعيين وزير أو وزراء لم يسمح الله به فحسب ، بل يعتبر تنفيذا لشريعة الله حتى يستطع الحاكم أن يؤدى أعماله على خير وجه .

كان الخلفـاء الأربعة الأوائل أقوياء ، دبّروا أمورهم دون مساعدة ، ولذا لا نجد لوظيفة الوزارة فى عهودهم أثرا . وظهرت الوزارة فى صورة باهتة أواخر العصر الأموى ، ولـكنها اتخذت صورتها الـكاملة القوية فى العصر العباسى . ويمكننا أن نضيف أن أهمية منصب الوزارة ظل ذا فائدة حتى عهد الخليفة الراضى حينما أصبح يطلق على الوزير لقب (أمير الأمراء) . وفى ظل هـذا اللقب حكم البويهيون العراق وبغداد ، حتى إذا تخلص السلاجقة من البويهيين منحوا الخلفاء مزيدا من السلطة والقوة .

---

(١) لا نجد فى الشعر أو النثر الجاهلى مايدل على معرفة الوزارة (المترجم) .

(٢) سورة طه آية ٢٩ وما بعدها (المترجم) .

فى العصر السلجوقى ، أصبح للخلفاء من النفوذ ماجعلهم يختارون الوزراء تبعا لأهوائهم [١] .

ظهرت مؤلفات تدور حول واجبات الوزراء ووظائفهم وتوجيه النصائح إليهم [٢] ، وأبرز هذه الكتب اثنان وهما : الأحكام السلطانية للماوردى ، وكتاب آداب الوزارة . والكتاب الثانى أكثر الكتابين أهمية إذ أنه يمدنا بعرض موجز لكل ماتريدأن نعرفه عن أى فرع من فروع الثقافة الإسلامية .

كما أشيد بكتاب (آثار الوزراء) الموجود فى المكتبة الشرقية العامة فى مدينة (بانكيبور) ، فهو يمدنا بتاريخ الوزراء منذ أقدم العصور ، و يتحدث عن فارس حتى عهد (تيمور) . هذا الكتاب ألفه (سيف الدين حاجى) .

---

(١) Von Kremer : Culturgeschichte , Vol. I , p. 185 ; Herrschenden , Ideen, p. 418.

(٢) اهتم بعض المؤلفين المسلمين بالوزارة فأفردوا له كتباً مستقلة ، منها (كتاب الوزراء) الذى ألفه هلال الصابى البغدادى فى القرن الخامس الهجرى ، ومنها كتاب (الوزراء والكتاب) للجهشيارى المتوفى فى القرن الرابع الهجرى . ومنها كتاب الوزراء المنسوب إلى الصولى . وهناك من المؤرخين من تحدث عن الوزارة عرضاً فى كتابه ، كما فعل ابن الطقطقى فى كتابه (الفخرى فى الآداب السلطانيه) وكما فعل النويرى فى كتابه (نهاية الأرب فى فنون الأدب) . وتحدث الماوردى ، من علماء القرن الخامس الهجرى ، عن الوزارة فى كتابة (الأحكام السلطانية) من الناحية الفنية ، دون تناول أشخاص الوزراء وأخبارهم . (المترجم) .

وهناك ثلاثة كتب أخرى نذكرها : كتاب الفخرى[1] . (تاريخ الدول الإسلامية) حيث يجد القارئ بحثاً فى أكثر من ثمانين صفحة حول حقوق وواجبات الملك ورجاله[2] . والكتاب الثانى ، كتاب (سراج الملوك) للطرطوشى ، وهو كتاب وُضع لفائدة الملوك . والكتاب الثالث (سياسة نامة) لنظام الملك ، وهو من أشهر كتب الأدب الفارسى[3] . والوزارة الإسلامية على نوعين : وزارة تتمتع بسلطات كاملة غير محدودة ، وأخرى سلطتها محدودة ثابتة . يطلق على الوزير ذى السلطة غير المحدودة (وزير التفويض) ، ويطلق على الوزير المحدود السلطة (وزير التنفيذ) . ويختلف كل وزير عن الآخر فى المرتبة والنفوذ والمؤهلات الشخصية التى يجب توافرها فى كل منهما . ولنناقش السلطات الممنوحة للوزير المطلق السلطة أو كما يسمى أحيانا (الوزير الكبير) . كان هذا الوزير هو القائد الأعلى وعقل الخليفة المفكر ، وفى يده جميع السلطات فى الدولة ، ولا يتميز الخليفة عنه سوى فى اللقب ، بل إنه يسيطر على الخليفة ، ولكن عليه أن يحيط الخليفة علما بالأوامر التى يصدرها والقوانين

---

(١) Publ. Cotha , 1660

(٢) انظر الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون ص ٨٢ (حاشية ٢) ، وتحدث ابن خلكان عن ابن العباس الصولى باعتباره مؤلف (كتاب الوزراء) ص ٢٣ جـ ١ ــ انظر : بروكلمان :الأدب العربى ص ١٤٣ (للمؤلف) .

(٣) Von Hammer, vol. VI, p. 121 , s 9. ــ (المؤلف) .

التى يضعهـا حتى يبيّن للخليفة اعتماده عليه . ويستطيع الوزير ، مثله مثل الخليفة ، أن يتولى هو مباشرة ، أو بواسطة موظفين يختارهم ، رئاسة القضاء ، والشئون الحربية ، وغير ذلك من الأعمـال الحـكومية . ولـكن سلطات الوزير أقل من سلطات الخليفة فى ثلاث نواح : (١) لا يستطيع الوزير أن يولىّ نائبا عنه أو خلفا له[1] . (٢) لا يستطيع أن يعلن للنـاس استقالته ، إذ أنه موظف شخصى لدى الخليفة (٣) . لا يستطيع الوزير ، إلّا بإذن خاص ، أن يعزل أو ينقل موظفـا عيّنـه الخليفة . أما فى سائر الأمور الأخرى ، فللوزير مطلق الحرية . كما أن الخليفة لا يستطيع التدخل فى بعض الشئون إلّا بمشورة الوزير ، مثل القوانين الشرعية أو القرارات المـالية . بينما الخليفة ، باعتباره الرئيس الأعلى للدولة ، يمكنه نقل أى موظف عيّنه الوزير ، كما يمكنه تعديل أو إلغـاء القرارات التى تتعلق الحرب أو المصـالح الحـكومية التى أقرها الوزير ، إذ أن الخليفة ، وليس الوزير ، هو المسئول عن أعمـال الحـكومة .

فى حالة اختلاف وجهات النظر بين الخليفة والوزير فى شأن من الشئون يـكون الحـكم للأسبقية ، إذا كان كل منهما يجهل القرار الذى أصدره الآخر . أما إذا كان الخليفة عالما بقرارات الوزير فإنها تصبح نافذة بينما

(١) هذا يذكرنا بالقانون الرومانى (Delegatus non Potest deligare) (المؤلف)

لا يستطيع تنفيذ قراراته إذا عارضها الخليفة . وهكذا نرى أن الخليفة والوزير يتعاونان فى الحكم [١] . ولذا فمن الضرورى أن يكون للوزير مؤهلات شخصية عظيمة حتى يستطيع أن يواجه الظروف ، وليكون قادرا على أداء واجبه ، مما يؤدى إلى الثقة فيه وتحقيق الفائدة للآخرين .

حينما أصبحت الخلافة وراثية ، وانصرف الخلفاء إلى ملذاتهم ، أصبح الوزير هو الذى يدير دفة الحكم . ولمّا كان منصب الوزارة دقيقا وصعبا ، ولذا يجب أن يكون الوزير على جانب كبير من المهارة فى الحكم ، والسياسة فى البلاط . كما يجب أن يكون خبيرا فى فن تسلية وإرضاء الخليفة ، وأن يجيد مايسميه العرب (الأدب) أو مانسميه نحن بالثقافة [٢] . قال أحد

(١) انقسمت الوزارة فى العصر العباسى إلى نوعين : ١ ـ وزارة تنفيذ : مهمة الوزير فيها تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف فى شئون الدولة من تلقاء نفسه ، بل عرضها على الخليفة وتنفيذ أوامره ، فالوزير واسطة بين الخليفة والرعايا ـ ٢ ـ وزارة التفويض : يعهد الخليفة بالوزارة إلى رجل يفوض إليه النظر فى أمور الدولة ، والتصرف فى شؤونها دون الرجوع إليه ، ولم يبق للخليفة بعد ذلك إلا ولاية العهد ، وسلطة عزل من يوليهم الوزير (المترجم)

(٢) ذكر الماوردى (الأحكام السلطانية) الشروط التى يجب توافرها فى وزير التفويض وهى : الاجتهاد ، الكفاية ، أما وزير التنفيذ فيجب أن يتوافر فيه سبعة أوصاف : الأمانة ، صدق اللهجة ، قلة الطمع ، أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء ، أن يكون ذكورا لما يؤديه إلى الخليفة وعنه ، لأنه شاهد له وعليه ، الذكاء والفطنة ، ألا يكون من أهل الأهواء ، وإن كان هذا الوزير مشاركا فى الرأى احتاج إلى وصف ثامن ، وهو الحنكة والتجربة . (المترجم) .

الكتّاب العرب : « يجب أن يعرف الوزير كيف يعزف على الناى ، ولعب الشطرنج ، واللعب بالكرة على الطريقة الفارسية . وفوق هذا كله ، يجب أن يكون الوزير متبحرا فى الرياضيات ، والطب والتنجيم ، وقواعد اللغة ، والتاريخ ، وفى الختام يجب أن يجيد كتابة الشعر ورواية القصص » . هذه الفقرة تصوّر لنا الدراسات التى يجب على طالب العلم أن يدرسها فى العصور الوسطى ، فقد كان عليه أن يلم بشىء من جميع العلوم والآداب المعروفة للعالم المتمدين بعد ذلك . وقد لا نأخذ بحرفية هذه الفقرة ، ولكن يمكننا أن نشير إلى أنه كان على الوزير أن يتلقى من التعليم ما ينمّى مواهبه ، ويجعله عضوا نافعا فى المجتمع ، بحيث يستطيع القيام بواجبه وينال ثقة الجمهور .

هناك عبارة قالها المأمون ذكر فيها الشروط التى يجب توافرها فى الوزير ، ونجد أنه من المناسب أن نذكرها هنا وهى : « إنى التمست لأمورى رجلا جامعا لخصال الخير ، ذا عفة فى خلائقه ، واستقامة فى طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها ، يسكته الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة ، وتغنيه اللمحة ، له صولة الأمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، إن أحسن إليه شكر ، وإن ابتلى بالاساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه ، وحسن بيانه [1] » . وربما نتساءل ، هل

(١) رجعنا إلى كتاب (الأحكام السلطانية) للماوردى ص ٢١ طبعة مطبعة الوطن ١٢٩٨ هـ (المترجم) .

من الممكن أن نجد رجلا تتوافر فيه هذه الصفات ؟ ولكن الحقيقة الواضحة أنه فى تلك الأزمان كان الوزير يمتلك كل مباهج الحياة ، متصلا بالأوساط الاجتماعية الراقية . ولولا ذلك لقلنا إنه ليس من الضرورى أن تتوافر هذه الصفات فى ذلك الرجل لتولى هذا المنصب الكبير . . . . . .

أما الوزير الثانى ، فسلطته محدودة ، فقد كان من واجبه وضع أوامر الخليفة أو الوزير الأول موضع التنفيذ ، وتنفيذ الأوامر الحكومية ، و إعلان القرارات ، و إتمام الاستعدادات للحرب ، وكتابة التقريرات حول الأحداث الهامة التى لها لون سياسى . ولكننا لا يمكننا أن نعتبر أن هذه الوظيفة تأتى فى المرتبة الثانية. فأهمية هذا المنصب تتمثل فى أن صاحبه هو وسيلة تنفيذ جميع القوانين والقرارات وصبغها بالصبغة الشرعية . وهو يشبه حامل أختام الوزير فى بعض الحكومات الحديثة . أما الفرق بين واجبات الوزير المطلق السلطة أو الوزير الكبير ، والوزير المساعد ، فتؤدى إلى اختلاف المؤهلات التى يجب توافرها فى كل من الشخصين . أما المؤهلات التى يجب توافرها فى الوزير الكبير فقد سبق لنا ذكرها . أما الوزير الثانى ، فهو الأداة الحكومية ، وهو الصلة بين الحاكم والمحكومين ولذا يجب أن تتوافر فيمن يتولى هذا المنصب ، عند العرب ، ما يأتى : (١) الأمانة (٢) الدقة (٣) الاجتهاد .

يكمل هذه الصفات الإلمام بالمعارف المفيدة ، مثل معرفة القانون ،

والشريعة ، إلى جانب إجادة فروع إدارة الأعمال المختلفة . ولكن ليس من الضرورى أن تتوفر فيه صفات عقلية معيّنة ، إذ أنه فى تصريفه شئون الحكومة لايتصرف عن هواه وبمشيئته ، فهو آلة فى يد الخليفة أو الوزير. كان الماوردى[1] ، وهو كاتب ظهر فى القرن الحادى عشر الميلادى ، أوّل من أعطانا صورة عن تولّى أهل الذمة منصب الوزير الثانى ، ولكن هذا لايجعلنا نظن أن غير المسلمين ، قبل العصر الذى عاش فيه الماوردى ، لم يتولوا المناصب الكبرى فى ظل الخلافة ، ولكن الماوردى كان أول من تحدّث فى كتابه عن هذه المعاملة الكريمة . كنا قد ذكرنا آنفا أن أهم منصبين ، بعد الخلافة ، هما منصب الوزير ومنصب الكاتب . وقد تولى غير المسلمين منصب الكاتب فى عهد كثير من الخلفاء . فقد كان كاتب عبد الملك (ابن سرجون) مسيحيا . كما تولى ابن اسحق نفس المنصب فى العصر العباسى ، كما كان وزير عضد الدولة ، وهو نصر بن هارون ، مسيحيا أيضا .

كما نذكر أن الفاطميين فى مصر ولّوا اليهود منصب الوزارة . وقد ذكر السيوطى فى كتابه (حسن المحاضرة) عبارة عجيبة : « وولى بعده ـ أى بعد المعز لدين الله الفاطمى ـ ابنه العزيز أبو منصور نزار ، ومن غرائبه أنه

(١) Von Kremer, vol. I, p. 168 أنظر ج ٢ ص ١١٧ المؤلف

استوزر رجلا نصرانيا ، يقال له عيسى بن نسطورس [1] وآخر يهوديا اسمه ميشا فعز بسببهما اليهود والنصارى ، حتى كتبت إليه امرأة فى حاجة لها ، تقول : بالذى أعز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بميشا ، وأذل المسلمين بك ، لما كشفت عن ظلامتى . فعند ذلك أمر بالقبض على هذين ، وأخذ من النصرانى ثلاثمائة ألف دينار [2] » .

هـذا التسامح الذى أبداه الماوردى وجـد من يناقضه و يعارضه . فقـد كتب (ابن جمح) وهو كاتب مصرى عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى ، يهاجم سياسة تعيين أهل الذمة فى الوظائف ، ودعا إلى حماية حقوق المسلمين . فقال إنه يجب منع أى ذمى من تولى جمع الجزية المفروضة على أهل الذمة . كما يجب قصر وظائف جمع الخراج على المسلمين دون تعيين أهل الذمة . فيا للفارق الكبير بين الماوردى وابن جمح ! ! ولا بن خلدون رأى فى هـذا الموضوع يستحق الاهتمام . . فهو لا يجعل الغـيرة على الدين أساس معارضته لتعيين أهل الذمة ، بل الأجانب أيضا ، فى المناصب الكبرى ، بل يذهب

---

(١) كان ابن نسطورس وزيرا جليلا ، وبلغ من وقاره وجلال قدره أنه كان يخاطب بسيدنا الأجل (المترجم) .

(٢) رجعنا إلى النسخة المطبوعة من كتاب (حسن المحاضرة) فى سنة ١٩٦٠ (المترجم) .

إلى أبعد من ذلك ، فيرى أن هؤلاء لن يكون لديهم من الحماس والغيرة للعمل على مصلحة الدولة مثلما عند العربى . ويرى أن العواطف والمشاعر الوطنية للعمل للمصلحة العامة تنقصهم ، ولذا يرى ابن خلدون أن تقديم الأجانب يؤدى إلى ضعف الخلافة فيرى أن الدولة الأموية كانت قوية لاعتماد الخلفاء على قواد عظام من العرب، مثل عمرو بن سعد بن أبى وقاص ، وعبيد الله بن سعد بن أبى سفيان ، والحجاج بن يوسف ، والمهلب بن أبى صفرة ، وخالد بن عبد الله القسرى [1] ، وابن هبيرة ، وموسى بن نصير ، و بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى ، ونصر بن سيار . ولكن الخلفاء مالبثوا أن استبدوا بجميع السلطات وتركوا الاستعانة بالعرب فى المناصب الكبرى ، وكان نتيجة ذلك أن الوزارة أصبحت فى أيدى الأجانب ومحاسيب الخليفة ، مثل البرامكة ، وبنو سهل بن نوباخت ، وبنو طاهر ، ثم انتقلت إلى البويهيين ، ثم إلى الأتراك مثل بغاو يوسف وقطامش وابن طولون وأولادهم. وهؤلاء الرجال لم يعملوا من أجل صالح وقوة الدولة ، ولكنهم حازوا جميع السلطات لأنفسهم [2] . ومما يجدر ذكره أن خالد القسرى كان

---

(١) انظر ابن خلكان جـ ١ ص ٤٨٨ وانظر أيضاً (Von Kremer, v. I, p. 160) وانظر (Flugel, Mani, pp. 390) .

(٢) ابن خلدون ، الترجمة الفرنسية ، المقدمة ص ٣٧٣ — ٣٧٤ ، الفخرى ص ١٢٦ — ١٢٧ .

مسيحيا [1] . وهكذا ، فإن التعصب الدينى ليس السبب فى هذا التغيير ، إنما السبب سياسى بحت . من المستحيل أن نشكر مقدرة وعظمة بعض هؤلاء الوزراء ، مثل البرامكة و بنو سهل بن نو باخت .

وهناك سؤال آخر ، شُغل به الفقهاء العرب ، وهو : هل من الممكن أن يحكم عدد من الوزراء جنبا إلى جنب ؟ فى وقت اتساع الإمبراطورية وكثرة أعمالها ، احتيج إلى توزيع السلطات ، وأصبح من الضرورى تعيين عدد من الوزراء للقيام بالأعمال . وينهى الفقهاء العرب عن تعدد الوزراء الكبراء ، ولا يقبلون التعدد إلاّ فى حالتين : (١) حينما تزداد الأعمال فتزداد الأعباء (٢) إذا استطاع الوزراء أن يتضامنوا بحيث يصبحوا كأنهم شخص واحد . ونجد تشابها محدودا بين هذا الشرط ونظام مجلس الوزراء البريطانى .

لم يكن تعيين الوزراء أو عزلهم يتم بطريقة قانونية ، فلم يكن هناك حاجة إلى هذا الشكل القانونى . فى المرحلة الأولى من نظام الوزارة ، كانت

---

(١) لم يكن خالد مسيحياً ، وإن كانت أمه مسيحية ، مما دعا الى توجيه كثير من الاتهامات لخالد . فيتهمه الأصبهانى (الأغانى ج ١٩ ص ٥٨) أنه بنى لأمه كنيسة فى ظهر قبلة المسجد الجامع بالكوفة ، فكان يضرب لها بالناقوس حين يرفع المؤذن صوته بالأذان . ويتهم ابن الأثير خالدا بهدم منار المساجد (الكامل ج ٥ ص ١٠٩) ويذهب ابن النديم (الفهرست ج ٢ ص ٤٦٧) الى أن تسامح خالد مع أهل الذمة أدى الى ظهور المبادئ المجوسية فى صورة عنيفة . أما ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨) فيرى أن عزل هشام بن عبدالملك لخالد كان بسبب توليته المجوس على المسلمين (المترجم) .

الوزارة محدودة السلطات ، ولكن بازدياد ضعف الخليفة ظهر الوزير المطلق السلطة أو الوزير الأعظم . ويجدر بنا أن نذكر ، أنه جاء فى قانون نامه ، وهى القوانين التركية الأساسية ، أن أعمدة الحكومة أربعة : الوزير ، قاضى عسكر (أى قاضى الجيش) ، الدفتردار (وزير المالية) ، النيشا ندجى (أى السكرتير) . ويحدد عدد الوزراء بأربعة ، ولكن الوزير الأعظم هو الذى يحمل أختام الدولة ، وله السلطة العليا . وتثير العبارة المنسوبة إلى المأمون عجبنا ، فقد قال إن هناك أربعة رجال يحتاج إليهم الأمير : القاضى ، ورئيس الشرطة ، وصاحب الخراج ، وصاحب البريد . وأهمل المأمون ذكر الوزير ، وقد يكون هذا راجعا إلى أن شمس الوزراء لم تكن قد بزغت فى كبد السماء [١] .

ولنتحدث الآن عن الحكومة . ولى الرسول الولاة على الولايات ، وكان تعيين الولاة [٢] أمراً طبيعيا حينما تتسع أراضى الدولة ويتعذر على الحكومة المركزية تصريف شئون الولايات البعيدة . وذكر ابن خلدون أن أساس

---

(١) ابن الأثير (طبعة Tonbary) ج ٦ ص ١٦ — ١٧

(٢) كان أمراء الأقاليم يسمون « عمالا » ومعنى عامل يفيد أن صاحبه ليس مطلق السلطة . على أنه فيما بعد استعملت كلمة « والى » ، وهى تشعر بالنفوذ والسلطان ، كذلك أطلقت عليه كلمة «أمير» وتطور اللفظ على هذا النحو يدل على السلطة الاستبدادية التى تمتع بها الولاة ، وأصبحت كلمة عامل فى العصر الأموى تطلق على رئيس الشؤون الإدارية (المترجم)

الحكم يجب أن يكون حماية البلاد [1] . ولم تشهد البشرية حتى كما فطن إلى جوهر هذه الحقيقة إلا الخليفة العظيم عمر بن الخطاب . فقد ولى الولاة ، ولكن فرض عليهم رقابته . وكان عمر إذا ولى واليا أعطاه كتابا به أمر تعيينه وتحديد واجباته وسلطاته ، وعلى الوالى أن يقرأ هذا الكتاب على الناس فى مكان عام حتى يعرفوا واجباته وسلطاته . كما كان الوالى يقسم على ألا ينصرف إلى الترف وجمع الثروة ، وألا يغلق بابه فى وجه المحتاجين والفقراء والمظلومين [2] . وخطا عمر خطوة أخرى ، فمن أجل أن يفرض رقابة تامة على ولاته ، أوجد وظيفة جديدة ، يتولى من يليها السماع إلى الشكايات . وتولى هذا المنصب رجل عرف بتقواه هو محمد بن سلمة ، وهو أحد كبار صحابة الرسول ، وكان الرسول إذا تغيب عن المدينة جعله نائبا عنه عليها ، وهو شرف كبير تميز به عن سائر الصحابة . وسنذكر مناسبتين مارس فيهما محمد ابن مسلمة سلطة وظيفته إزاء واليين : فى سنة ٢١ هـ ترددت شكايات ضد سعد ابن أبى وقاص ، بطل القادسية . وعلى الرغم من الخطر الكامن فى فارس ، فقد أمر عمر محمد بن مسلمة بأن يرحل إلى الكوفة ويقوم بالتحريات . فقدم إلى الكوفة ، وبحث الحالة ، ثم عاد إلى المدينة وفى رفقته سعد حيث حاسبه

---

(١) المقدمة (الترجمة الفرنسية) ص ٣٨٣ .

(٢) شبلى . الفاروق جـ ٢ ص ٣١ — ٣٢ .

عمر على أعماله . أما الحالة الثانية ، فهى حالة عمرو بن العاص ، فقد كتب عمر إليه يسأله عن ثروته وممتلكاته ، وأجاب عمرو على استفسارات الخليفة . ولكن الخليفة لم يقتنع بهذه الإجابة وكان قد سمع بشكايات ضده ، فبعث محمد بن مسلمة إلى مصر ليقوم بالتحقيق . واستجاب ابن مسلمة لأمر الخليفة ، فتوجه إلى مصر وصادر نصف ثروة عمرو بن العاص وضمها إلى بيت المال (١) .

وكان عمرو أيضا هو الوالى الذى استجوبه عمر عن بناء بيت فى الفسطاط (٢) . كان عمر حريصا على استقامة ولاته وصلاحهم حتى أنه كان لا يسمح لهم بشراء الأرض أو بناء البيوت فى ولاياتهم .

ويمكننا أن نتصور مدى ازدياد نفوذ الولاة فى عهد الخلفاء الضعاف . وإذا كانت قبضة عمر الحديدية فشلت فى انتزاع جذور الفساد ، فإنه من العدل أن نجد العذر لسائر الخلفاء إذا أخفقوا فى تحقيق ذلك .

من أجل منع الولاة من اغتصاب الأموال ، أوجد عمر نظام (المقاسمة) ، فقد كان يدوّن كل ممتلكات الولاة قبل تعيينهم ، ثم كان يرغمهم على أن يردّوا إلى بيت المال نصف ما كانوا يحملونه من أموال عند عودتهم (٣) .

(١) البلاذرى ص ٢١٩ ، الطبرى ج ٢ ص ٢٠٢ .
(٢) Weil : Geschichte Der Chalifen, V.I,p.117
(٣) البلاذرى ص ٢١٩ .

لقد كان عمر خبيرا بطبيعة البشر ، فكان يسمّى معاوية دائما (قيصر العرب) ، إذ كان يعرف أنه رجل ذو طموح كبير ومبادئ محدودة ، ولذا فإنه حين ولّى عمر معاوية واليا على الشام فإنه فرض على سلطته قيودا ، إذ سمح له بسلطات محدودة . ولكن بدون شك كان مما جرح كرامة معاوية أن الخليفة بعث فى رفقته قاضيا ليؤم المصلين ويمثل الخليفة فى الشئون الدينية [١] . حتى فى عهد عثمان ، نلاحظ تغييرا ملحوظا كبيرا فى النظام الإسلامى ، فقد أصبح الخليفة ألعوبة فى أيدى رجاله الذين كانوا يوجهونه تماما .

حاول عثمان أن يفصل الشئون المالية عن الإدارة الحكومية فى الولايات ، ولكن هذا النظام فشل فى بعض الولايات ، حيث كان الولاة لا يسمحون بالتدخل فى شئونهم فأعلن والى مصر معارضته لهذه السياسة ، فقال إنه لا يمسك زمام البقرة ليقوم غيره بحلبها [٢] . قد يكون المسلمون فى أيامنا هذه يتحملون بعض الظلم ، ولكن الحكام فى عصرنا الحديث أقل ظلما . هناك بعض الأمثلة عن اختبار الناس لحكامهم ، ويعطينا البلاذرى فى كتابه (فتوح البلدان) واحدا منها [٣] . فروى أن الرسول عزل علاء ،

(١) Vonkremer, V. I, p. 110

(٢) Von Kremer, V. I, p. 159

(٣) ص ٨١ .

والى البحرين ، وولى مكانه أبان بن سعد ، وحينما توفى الرسول عاد أبان إلى المدينة من البحرين ، وطلب أهالى البحرين من أبى بكر أن يولى عليهم علاء مرة أخرى ، واستجاب أبو بكر لطلبهم . وظل علاء واليا على البحرين حتى مات (٢٠ هـ) . ولكن بعد أن ساءت الأحوال فى عهد عثمان ، فإننا نقرأ عن ولاة فى ظل الأمويين ، يمكثون فى البلاط فى المدينة ويتركون حكم ولاياتهم لنواب ينيبونهم عنهم . حينما ولى هشام أخاه مسلمة واليا على ولايات أرمينية وأذربيجان لم يقم بأداء واجباته بنفسه ، بل ترك ذلك لشخص يؤدى واجباته عنه (١) .

ولنتحدث قليلا عن شكل الحكومة . تنقسم الحكومة ، مثلها مثل الوزارة ، إلى نوعين : النوع الأول الحكومة ذات السلطات المحدودة ، والنوع الثانى الحكومة المطلقة السلطات (٢) . والنوع الأخير هو الذى كان

---

(١) Von Kremer, vol. I, p. 181

(٢) قسم الفقهاء الإمارة على البلدان إلى : إمارة عامة ، وإمارة خاصة . والعامة نوعان : إمارة استكفاء بعقد عن اختيار ، وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار ، وإمارة الاختيار تشمل سبعة أمور : ١ ـ تدبير الجيوش ـ ٢ ـ النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام ـ ٣ ـ جباية الخراج والصدقات ـ ٤ ـ حماية الدين ـ ٥ ـ إقامة الحدود ـ ٦ ـ الإمامة فى الصلوات ـ ٧ ـ تيسير الحجيج . أما الإمارة عن الاضطرار ، فيأخذها الوالى ويقرها الخليفة ، ويستبد الوالى بالسلطة ، لكن المسائل الدينية تكون من اختصاص الخليفة . (انظر الأحكام السلطانية للماوردى ص ٢٨ وما بعدها) ـ (المترجم) .

سائدا فى الدولة . فى فجر الإسلام ، فى عهد الرسول وأبى بكر و بداية عهد عمر ، ظهرت فكرة فصل الشئون الدينية عن الشئون الزمنية ، فقد كان الولاة لا يعهد إليهم بشئون الحكم ، وهى التى تهمهم ، فحسب ، بل كانوا يمثلون أيضا زعيم الإسلام فى الشئون الدينّية . فكانوا يلقون خطبة الجمعة فى المسجد ، ويؤمون المصلين ، ويمكننا أن نسميهم ممثلى الزعيم الدينى للمسلمين . ولكن حينما بدأ النفوذ الأجنبى يؤثر على أفكار المسلمين ، بدأت الحكومة فى الانقسام إلى فروع . فى عهد عمر ، أصبح هناك إدارة للشئون المالية و إدارة للقضاء ، وهى فروع تفرعت كلها عن الحكومة ، وكان لكل فرع منها هيئة خاصة من الموظفين . و بعد انفصال الإدارات الحكومية المختلفة نلاحظ الفرق بين الوالى المحدود السلطة أو المطلق السلطة . كان الوالى المطلق السلطة يعينه الخليفة مباشرة ، فيقود الجيش ويتولى القضاء و يولى القضاة ويجمع الضرائب والزكاة ، ويقوم بنفقات الحكومة . ويمارس الشئون الدينية ، ويعاقب المخالفين للشريعة ، ويؤم المسلمين فى الصلاة ويتولى قيادة الجيش [١] .

---

(١) (Von Kremer , pp. 419 — 423) والماوردى ص ٤٧ — ٤٨

سبق أن أشرنا إلى أنه فى عهد عمر ، قدم معاوية إلى دمشق واليا عليها ، وكانت سلطاته محدودة جداً . وإذا انتقلنا إلى الحديث عن الحكومة ذات السلطة المحدودة ، فنقول إنها تتركز فى الوالى الذى يرأس القوات العسكرية ويباشر الأعمال الحكومية ، ولكنه لا يتولى الشئون القضائية ولا يسيطر على الإدارة المالية ، ولا يمثل الخليفة فى الشئون الدينية .

ونضيف أيضا ، أنه كما حدث للوزارة المطلقة النفوذ ، حدث للحكومة المطلقة السلطات ، فقد تفاقم نفوذها حينما ضعف الخلفاء فسيطرت تماما على الشئون الحكومية . وإننا لنخطىء إذا قلنا إن الخلفاء ، وخاصة فى العصور المبكرة ، لم يدركوا خطورة ازدياد نفوذ الولاة ، ونحن نوافق (سبرنجر Sprenger) على ماذهب إليه من أن الخلفاء حرصوا دائما على أن يكونوا على اتصال دائم بشئون الولايات ، وعلى أن يوجهوا الولاة .

ولكن هذه السياسة لم تؤد إلى زيادة نفوذ الخليفة أو منع الكوارث . فكما ذكر ابن خلدون ، أن الحكومات الشرقية تميل دائما إلى الاستبداد ، ولذا لا نشك فى أن جهود الولاة اتجهت دائما إلى الإستقلال بقدر الإمكان عن الحكومة المركزية ، مما يعطينا صورة قاتمة عن انتشار الاضطرابات ومظاهر الضعف فقد استقل الولاة عن الحكومة المركزية وتخلوا عن ولائهم للخلافة .

نجح الطاهريون فى عهد المأمون فى أن يجعلوا الحكم وراثيا فى أسرتهم ،

ولكنهم التجأوا إلى السياسة لا إلى القوة . وهذا هو ماذكره الفخرى[١]. عن الخلافة فى عهد الراضى : « فى أيام الراضى ضعف أمر الخلافة العباسية ، فكانت فارس فى يد على بن بويه ؛ والرى وأصفهان والجبل فى يد أخيه الحسن بن بويه . والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر فى أيدى بنى حمدان . ومصر والشام فى يد محمد بن طغج ، ثم فى أيدى الفاطميين ، والأندلس فى يد عبد الرحمن بن محمد الأموى وخراسان والبلاد الشرقية فى يد نصر بن أحمد السامانى »[٢] .

فى زمن الحرب الصليبية الأولى ، انتشرت الفوضى والاضطرابات فى سوريا ، وآسيا الصغرى ، والجزيرة . كان جزء من آسيا الصغرى يحكمه قليج أرسلان ، وجزء آخر يحكمه قمشتكين . وفى الجزيرة كان كاربوجا يحكم الموصل ، وسرعان ماأعلن استقلاله واستطاع أن يجعل أمراء البلاد المحيطة به يعلنون ولاءهم له . وكانت أحوال سورية أكثر سوءا من أحوال غيرها من الولايات ، فقد انقسمت إلى أجزاء يحكمها ولاة مستقلون وقامت الحرب بين بعضها البعض . حكم رضوان ودقاق ، ابنى توتوش ، حلب ودمشق . بينما سيطر باجو سيان على أنطاكية . عاش الماوردى فى العهد الذى تفتتت فيه السلطة المركزية ، وأصبح الخليفة طيفا .

---

(١) رجعنا إلى الفخرى ص ٢٥٣ طبعة مطبعة الموسوعات سنة ١٣١٧ هـ (المترجم) .
(٢) الفخرى ص ٣٢٨ (المؤلف) .

وهناك من يضيف نوعا ثالثا من أنواع الحكومة ، وهى الحكومة التى تغتصب السلطة ، أو مايسمى (إمارة الاستيلاء) ، وهى من الحقائق الثابتة التى تثير الأسف .

فإنها تعنى ، لا أكثر ولا أقل ، استيلاء مغامرين سياسيين على حكم ولايات من السلطات الشرعية بقوة السلاح مع إنكار سلطة الخليفة . وحينئذ يضطر الخليفة إلى إقرارهم فى الحكم على شرط أن يعترفوا بسلطته الروحية والدينية . وضرب الماوردى كثيراً من الأمثلة[1] .

ويجب علينا ألا نَغفَل عن أن نذكر أن جمع الخليفة للسلطتين الروحية والزمنية ، مما أطال عمر الخلافة ، ولولا ذلك لما استطاعت الخلافة أن تعيش أكثر من قرنين .

أفلتت السلطة السياسية من أيدى الخليفة ، وإن ظلت تحيط بشخصه هالة من

---

(١) قال الماوردى (الأحكام السلطانية ص ٢٩) : « أما إمارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطرار ، فهى أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها ، فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير ، والخليفة بإذنه منفذاً لأحكام الدين ، ليخرج من الفساد إلى الصحة ، ومن الحظر إلى الإباحة . وهذا وإن خرج عن عرف التقليد المطلق فى شروطه وأحكامه ففيه من حفظ القوانين الشرعية وحراسة الأحكام الدينية مالا يجوز أن يترك مختلا مدخولا ، ولا فاسداً معلولا ، فجاز فيه مع الاستيلاء والاضطرار ماامتنع فى تقليد الاستكفاء والاختيار لوقوع الفرق بين شروط المكنة والعجز » ـ (المترجم) .

الاحترام والتقديس . ولم ير أقوى هؤلاء المغامرين والقواد بأساً من قبول ذلك[1] . كما أن هؤلاء رغم أنهم فرضوا أنفسهم فى حكم ولاياتهم بقوة السلاح ، إلا أنهم وجدوا أنه من الضرورى الحصول على تأييد الخليفة ليكسبوا سلطتهم صبغة شرعية .

كان لقب (ملك الدولة) هو موضوع المفاوضات الدبلوماسية الطويلة التى دارت بين الخليفة القـادر والملك أبو كاليجار[2] . والذى كان الماوردى ، العالم المشهور ، خلالهـا سفيراً للخليفة . فقد أراد الملك لقبا لا يقل عن (السلطان المعظم) أو (ملك الأمم) ، ولـكن المـاوردى فشل فى تحقيق هـذا الطلب ؛ فقد كان الخليفة وحده السلطان المعظم وملك الأمم وأخيرا رضى الملك بلقب (ملك الدولة) ، و بعث بالهدايا الثمينة ، كما روى الماوردى إلى الخليفة[3] .

---

(١) برز الجانب الروحى للخلافة حينما ضعفت سلطة الخليفة السياسية ، انظر (جولدتسيهر جـ ٢ ، ص ٦٠) — (المؤلف) .

(٢) Von Kremer, vol III, p. 76.

(٣) هو أبو كاليجار بن سلطان الدولة البويهى ، سيطر على بغداد بعد وفاة جلال الدولة سنة ٤٣٥ هـ بعد أن اغتصب السلطة من أبى منصور فيروز الابن الأكبر لجلال الدولة ، ولـكنه لم يجد من الخليفة القائم ترحيبا . بدأ العداء بين أبى كاليجار وطغرل بك السلجوقى ولـكن عقد الصلح معه بعد سنتين ، واتفقا على زواج طغرل بك بابنة أبى كاليجار ، ويتزوج أبو منصور بن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرل بك ، وكان لقب أبى كاليجار هو (عماد الدولة) ، وتوفى أبو كاليجار فى جمادى الأولى سنة ٤٤٠ هـ وعمره أربعون سنة بعد حكم دام أربع سنين وشهرين ؛ ووصفه أبو المحاسن بأنه كان « شجاعا فاتكا مشغولا بالشراب واللهو » — (المترجم) .

تعطينا القصة التالية ، التى ننقلها عن ابن الأثير، فكرة عن عظمة الخليفة ، حتى فى أيام ضعف الخلافة[١] . فحينما ذهب ملك شاه ، ذلك الأمير القوى الذى أحيا مجد الامبراطورية الإسلامية وعظمة الخلافة ، إلى بغداد ليقلّده الخليفة ، أراد ملك شاه أن يقبّل يدى الخليفة باعتباره رأس الإسلام ، ولكنه لم يُمنح هذا الشرف ، بل سمُح له بأن يقبل شارة الخليفة . ولكن هذه المظاهر كلها تخفى من ورائها ضعف الخليفة السياسى . فقد انتهت أيام مجد الدولة الإسلامية ، وبدأت أيام الاستعباد والكراهية وأيام المواهب المحدودة ، والرذائل الكثيرة .

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٠٤ (المؤلف) .

عرض تاريخي للعلوم الإسلامية [1]

مازلت أومن بأن الطريق الوحيد لنتلغب على عواطفنا ولنقف على أسباب قوة المسلمين ، هو دراسة الأدب والتاريخ الإسلامى . والمسلمون المحدثون فى حاجة إلى نور العرفان . وقد ترك أجدادهم أدبا يقوم على أساس ضرب الأمثال ثم قص روايات تشرحها ، وكل من هذه الأمثال وتلك الروايات جديرة بأن تصل إلى القلوب . وفى رأيى ، أنه من الضرورى أن نهتم بعلومنا المهملة أو بعبارة أخرى نهتم بواجباتنا التى أهملناها . أما واجبنا ، فهو أن نعرف تاريخنا ، الذى يفسر لنا عقيدتنا ، كما يجب أن نهتم أيضا بالأدب العربى الذى لا يقل أهمية . وقد يجهل البعض أن العلوم الإسلامية قد أثرت تأثيرا قويا فى تاريخ العصور الوسطى منذ أن كان المسلمون يحتلون مكانا بارزا ويؤثرون فى الحركات الفكرية .

كانت ملاحظة صائبة تلك التى لاحظها (هامر برجستول Hammer Purgstall) وهى أن بمولد الإسلام بدأ تاريخ العرب كما بدأ تاريخ أدبهم . أما فيما يتعلق ببحثى هذا ، فإنى سأضطر إلى التخلى عن بعض واجبى ، فأغفل تفصيل الحديث عن أمجاد العرب الأدبية فى العصر الجاهلى إذ أنها تصبح متواضعة أمام أمجاد المسلمين الأدبية .

---

(1) بحث ألقى فى (Patna) — المؤلف

ذكر الشهرستانى ـ الذى وضع كتابا مشهورا عن الدين وفلسفة المذاهب[١] ـ أنه كان هناك قبل الإسلام أربعة أنواع من الدراسات العربية : علم الأنساب ، والتاريخ ، وتفسير الأحلام ، وعلم التنجيم . وهذه هى حدود معارف العرب قبل الإسلام . اهتم ملوك الحيرة الغساسنة بحروف الكتابة ، كما كانوا يهتمون بالدراسة ونظم الشعر ، وإن كانت جهودهم إلى الآن لم تلق من يهتم أو يُشيد بها . وكان المنذر مشغولا بالمسائل السياسية ، ولكن كان فى بلاط ابنه عمرو اثنان من الشعراء على جانب كبير من الشهرة ، وهما المتلمس وطرفة ، والأخير نظم إحدى المعلقات . واشتهر النعمان ، خليفة المنذر ، بإغداق الصلات على الشاعرين النابغة ولبيد . وكان جبلة بن الأيهم ، آخر ملوك بنى غسان ، وكان معاصرا للخليفة عمر بن الخطاب ، شاعرا مجيدا . أما الملك الذى تفوق على الجميع فى عالم السياسة والذى مازال يلمع فى سماء الأدب فهو امرؤ القيس . تولى عرش الحيرة سنة ٥٠٥ أو ٥٠٦ م وظل يتولاه حتى سنة ٥٥٤ م[٢] .

يدين العرب للحيرة بمعرفة فنها فى الكتابة ، ذلك الفن الذى انتقل من

---

(١) الشهرستانى هو أبو الفتوح محمد بن عبد الكريم ، توفى سنة ٥٤٨ = ١١٥٣م وكتابه (الملل والنحل) ـ المترجم .

(٢) (Sir Charles Lyall : Ancient Arabian Poetry, p. 104.

الحيرة والأنبار إلى الحجاز بعد قرن ، بعد أن أنشأ الخليفة عمر مدينة الكوفة ، وأطلق اسم الكوفة على هذا الفن[١] .

من المتفق عليه أن فن الكتابة وصل إلى جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام بوقت وجيز جدا . ورغم أن الدارسين استطاعوا أن يلموا بكثير من الأدب العربى القديم ، إلاّ أن أقدم جوانب هذا الأدب لا ترجع إلاّ للقرن السابق لظهور الإسلام . وتتألف من قصائد قصيرة نُظمت فى مناسبات معينة وتدور حول الحروب بين القبائل المتعادية ، إلى جانب النثر المقفى وقصائد الرثاء . وكان تذوق الشعر يشترك فيه عظماء المجتمع وعامته على السواء . وحاولت كل قبيلة أن تتفوق على الأخرى فى الشعر . حرصت قبيلة هذيل على جمع شعر القبيلة ، وعهدت بذلك إلى السكرى ، ونجد دواوين أخرى مثل (المفضليات) و (الحماسة)[٢] .

كان علم الأنساب ـ كما ذكر الشهر ستانى ـ من أبرز دراسات العرب ، وبدت أهمية هذه الدراسة حينما بدأ الخليفة عمر فى تسجيل القبائل لوضع نظام لدفع العطاء[٣] . وفى هذا العلم ، يبرز كل من الكلبى والبلاذرى . كتب

(١) انظر (Hammer Purgstall, Literaturgeschlch te der Araber, V. I, p. 29) وانظر أيضاً ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٨٤

(٢) المفضليات : جمعها المفضل الضبى وتشتمل على نحو ١٢٨ قصيدة ـ ديوان الحماسة لأبى تمام منه مقطعات كثيرة صغيرة من الشعر الجاهلى ومثله حماسة البحترى (المترجم) .

(٣) Robertson Smith : Kinship and Marriage in Early Arabia , p. 6.

البلاذرى كتاب (أنساب الأشراف) وهو تاريخ للعرب أساسه علم الأنساب وإلى جانب الشعر ، تذوق العرب قبل الإسلام القصص ، مما لانراه عند سائر البشر فى تلك الفترة المبكرة من التاريخ . واشتهر أبو عبيدة برواية القصص عن العصر الجاهلى ، بل لم يكن له نظير فى ذلك (١) .

تذكر الروايات ، أنه حينما تمكن الرسول من فتح مكة ، وجثت مكة عند قدميه ، قال أبو سفيان للعباس : ياأبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيما . فقال العباس : ويحك إنها النبوة . فقال : نعم إذا (٢) . لم يستطع أبوسفيان أن يفهم أن محمدا كان ، مثل أنبياء بنى إسرائيل ، يجمع فى شخصه عدة وظائف ، فقد كان رسولا ، ومؤسس دولة ، ومشرعا . ومما يجدر ذكره ، أن الرسول لم يهمل تثقيف المسلمين ، فقد كان يطلق سراح أسرى بدر إذا قاموا بتعليم الأميين من المسلمين الكتابة (٣) . وكان محمد ، فوق ذلك ، لا يدخر جهدا ليبين للمسلمين ضرورة تحصيل المعرفة ، ويحفظ الحديث لنا الكثير من أقوال الرسول التى تدور حول هذا المعنى . ولعلىّ بن أبى طالب أقوال

---

(١) كانت قصص الجاهلية عدة أنواع : أيام العرب : وهى الحروب القبلية ، أحاديث الهوى ، وقصص أخذتها العرب عن أمم أخرى وصاغوها فى قالب عربى (المترجم) .

(٢) رجعنا إلى تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٣٢ (طبعة المطبعة التجارية سنة ١٩٣٩) — (المترجم) .

(٣) Johnson : Oriental Religion , p. 580.

تستحق الذكر . فقد أثر عن علىّ أنه قال : « التبحر فى العلوم أعلى مراتب الشرف » ، وقال أيضا « من وهب حياته للعلم لايموت أبدا» ، وقال « جمال الرجل فصاحة لسانه » . وفى عهد الخليفة علىّ ، وضع أبو الأسود الدؤلى قواعد النحو العربى . وفى فترةمتأخرة، قام خليل بوضع قواعد علم العروض ، وقام نشاط أدبى عظيم بين المسلمين فى مدن البصرة والكوفة ، وظهر فى هاتين المدينتين مدارس النحو يتزعمها الكسائى وسيبويه ، وقد أدّت إلى نهضة الأدب العربى .

ولننتقل إلى الأمويين ، فبتولية معاوية ، اختفى اللون الدينى الذى كان سائداً فى عهد الخلفاء الراشدين الأربعة ، وظهر نوع من السياسة الدنيوية البحتة . ولكن، مهما كان الرأى ، كانت سياسة الأمويين عالمية ، ومن الصعب على المؤرخ أن يجد بها أخطاء ، كما كان الأمويون ، بدون شك ، قادة للعلوم . وإنى أعارض بشدة مؤلف كتاب (روح الإسلام) حينما يقول : « بينما أهمل الأمويون النواحى العقلية السلمية ، طبع أبناء فاطمة على حرية الفكر والتعليم [١] » . وأرى أن هذا الرأى مخالف للحقائق التاريخية وإن كان بعض الخلفاء الأمويين لم يهتموا بالتعليم وأساءوا أيضا إلى الإسلام ، مثل الوليد الثانى ويزيد الثالث ومروان الثانى ، ولكنى أقول إنه لابد

---

(١) Ameer Ali : Spirit of Islam , p. 537.

لنصدر حكما صادقا على الدولة الأموية ، فلا بدّ أن نستعرض جميع جوانب تاريخها . بل إننا نجد بين العباسيين خلفاء مثل المستنجد والمقتدر قد ألقوا ظلالا قاتمة على أمجاد عهود المنصور وهارون والمأمون . ومهما كانت الاتهامات الموجهة للأمويين ، فيكفيهم فخرا أنهم احتضنوا العلوم الإسلامية وهى مازالت فى مهدها .

كان لمعاوية ـ مؤسس الدولة ـ قلب كبير وعقل متحرر . فقد كان اهتمامه بالعلوم المسيحية يجعله على نقيض من القياصرة البيزنطيين المتعصبين ضيقى الأفق . فنجد معاوية يرحب فى بلاطه بالطبيب المسيحى ابن أثال الذى ترجم لمعاوية كثيرا من كتب الطب إلى اللغة العربية [(١)] . كما بعث فى طلب عبيد الذى قدم من صنعاء إلى دمشق ليقص عليه تاريخ ملوك اليمن [(٢)] ، وذهب معاوية إلى أبعد من هذا ، فقد طلب من عبيد أن يصوغ رواياته فى قالب علمى [(٣)] . كما كان ابنه وخليفته يزيد ، الذى لا يحسد على ما اشتهر به فى التاريخ الإسلامى ، شاعرا مجيدا . كذلك كان خالد بن يزيد مغرما

(١) Shibli , Essays , p. 20 ـ كان ابن أثال طبيبا نصرانيا فى دمشق ، ولما ملك معاوية اصطفاه لنفسه ، وكان يؤمن بمقدرته ويحب ملازمته ليلا ونهارا (المترجم) .

(٢) اهتم معاوية بالقصص كوسيلة للدعاية للدولة الأموية ولشغل الناس عن السياسة الداخلية ، فبث القصاص فى المساجد فى جميع الأمصار الإسلامية يقصون القصص ويعظون الناس وينصحونهم بالطاعة والرضوخ للحكم الأموى (المترجم) .

(٣) Wustenfeld : Gesch. der Arab , p. 2

بالتعليم ، وقد كلف (أسطفانوس) و (ماريانوس) وغيرهم بترجمة الكتب إلى اللغة العربية .

وبفضلهم ترجمت الكتب اليونانية والقبطية ، واستطاعت عامة العرب قراءتها . وكان خالد نفسه مؤلفا ، وقد أعطانا ابن النديم فى كتابه (الفهرست) قائمة بالكتب التى ألفها . تحدث ابن أبى أصيبعة ، وهو كاتب عاش فى عصر سابق لعصر ابن خلدون ـ عن خالد ، فأشاد بثقافته الواسعة . وفى كتب مؤلفين مثل ابن أبى أصيبعة وابن النديم ، نجد ماينفى أقوال ابن خلدون الذى أثار الشكوك حول أعمال خالد بن يزيد الأدبية .

ذكر الأستاذ شبلى أنه فى عهد مروان قام (ماسرجاويه) بترجمة الكتب عن السوريانية ، ولكن (لكلرك Leclerc) ذكر أن ذلك كان فى عهد عمر بن عبد العزيز [1] . ويحسن بالكاتب فى العصر الحديث أن يترك المسألة دون أن يتخذ قرارا حاسما [2] . اهتم عمر بن عبد العزيز بالدراسات اليونانية أثناء حكمه لمصر فى خلافة سليمان بن عبد الملك . وفى

(١) Shibli : Essays , p. 166 . ; Leclerc : Hist. de la Medicine Arabe ; V. I , p. 124

(٢) ماسرجويه : ذكر القفطى فى أخبار الحكماء أنه كان إسرائيليا عاش فى زمن عمر ابن عبد العزيز ، وكان عالما بالطب وترجم لعمر كتاب أهران القس ، بينما ذكر ابن جلجل الأندلسى أنه كان سريانياً يهودى المذهب ترجم كتاب أهران فى أيام مروان بن الحكم وعثر عليه عمر بن عبد العزيز فى خزائن الكتب فأمر بإخراجه (المترجم) .

مصر ، تعرف بابن أبجر مدرّس الفلسفة اليونانية فى الإسكندرية [١] . وقد استمرت الصداقة طويلا ، وحينما تولى عمر بن عبد العزيز ، انتقلت الدراسات اليونانية من مصر إلى أنطاكية وحرّان ومنها إلى سائر الأمصار الإسلامية . والأستاذ شبلى على حق فى ظنه أن الفضل فى ذلك يرجع إلى رحيل ابن أبجر عن الإسكندرية . وبُذلت جهود أخرى من أجل ترجمة الكتب إلى اللغة العربية من اللغات الأجنبية ، وظهرت طبقة من الرجال يجيدون اللغة العربية مثلما يجيدون اللغات الأجنبية ، مثل صالح بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن عبد الملك .

ولكن إلى عهد المأمون ، لم تكن الحركات الأدبية قد بلغت ذروتها . كان هشام بن عبد الملك من أبرز الخلفاء الأمويين اهتماما بالعلم والدراسة ، ويرجع الفضل إلى كاتبه سليم ، المتحدث المشهور ، رواية بعض فصول مترجمة من إنتاج أرسطو . وورث جبلة بن سليم عن أبيه مقدرته الأدبية وقد اشتهر فى التاريخ بأنه ترجم بعض كتب التاريخ الفارسية إلى اللغة العربية ، وقد ذكر ابن النديم أسماء بعض كتبه . كان هشام مغرما بالأعمال الأدبية للأمم

---

(١) هو عبد الملك بن أبجر الكنانى ، كان طبيبا عالما ، كان أول أمره مدرسا بالإسكندرية ، ولما استولى المسلمون على البلاد أسلم ابن أبجر على يد عمر بن العزيز ، وكان حينئذ أميرا قبل توليته الخلافة ، فلما أصبح خليفة نقل التدريس إلى أنطاكية وحران ، واعتمد عليه عمر فى الطب (المترجم) .

الأخرى . ويروى أنه من بين الكتب الأدبية التى وقعت فى أيدى المسلمين ، تاريخ كامل للفرس وسير ملوكهم . وفى عهد الخليفة هشام تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية سنة ١١٣ هـ ، وروى المسعودى أنه رأى هذا الكتاب فى اصطخر [١] .

حظى عبد القاسم حماد بتكريم الوليد بن عبد الملك وهشام . كانت ذا كرته نادرة ، ويروى أنه كان يستطيع فى جلسة واحدة أن يتلو ألفين وتسعمائة قصيدة ، تنتهى كل مائة منها بحرف من الحروف الأبجدية ، وعاش جميع ناظمى هذه القصائد قبل محمد . ذكر (شنرى Chenery) أنه من المستحيل أن نشك فى أهمية مافعله الخليفتان من حفظهما لأحداث الماضى المعرّضة للضياع نتيجة موت رواتها فى الحروب المستمرة [٢] . فى سنة ١٢٥ هـ مات هشام ، وبموته انتهت أمجاد الأمويين فى آسيا . ولم يتمكن الأمويون

---

(١) ذكر المسعودى فى كتابه (التنبيه والإشراف) طبعة القاهرة ١٩٣٨ ص ٩٢ : « رأيت بمدينة اصطخر من أرض فارس فى سنة ٣٠٣ عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياساتهم ، لم أجدها فى شىء من كتب الفرس (كخداى ناماه) و (آئين ناماه) و (كهناماه) وغيرها مصور فيه ملوك فارس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكا منهم خمسة وعشرون رجلا وامرأتان . وكان تاريخ هذا الكتاب أنه كتب مما وجد فى خزائن ملوك فارس النصف من جمادى الآخرة سنة ١١٣ ونقل لهشام بن عبد الملك بن مروان من الفارسية إلى العربية » — (المترجم) .

(٢) Henery, Hariri, Introrl., p. 17

من الاستمرار فى النهضة العلمية ، ولا ننسى أنهم فتحوا الأبواب أمام النهضة ولم تقم عظمة العباسيين إلاّ على الأسس التى وضعها الأمويون . كما أن أحد أفراد الأسرة الأموية هو الذى وضع أساس خلافة قرطبة وجعل إسبانيا منار العلم خلال العصور الوسطى ، فى الشرق والغرب .

ورث العباسيون الأمويين ، وما لبثوا بعد فترة وجيزة أن تفوقوا عليهم. وبقيام الدولة العباسية بدأ نشاط هذه الدولة الفتية يمضى فى اتجاهات جديدة . فقد ظهرت ميادين جديدة للنشاط العقلى ، ونستطيع أن نقرر أنه بدأت الدراسة الحقيقية للتاريخ ، والفقه ، والفلسفة ، وغير ذلك من العلوم . ودخل على الأدب فى العصر العباسى معالم الحضارة اليونانية والفارسية ، ولكن هذه التأثيرات الأجنبية لم تكن إلاّ نتيجة لرغبتهم . ولكن العباسيين فى نفس الوقت الذى توسعوا فيه فى النشاط العقلى ، بذروا بذور الفساد ، ممّا أدّى بمرور الزمن إلى ضعف المسلمين ، ثم فى النهاية إلى تحطيم إمبراطوريتهم وثقافتهم .

انتقلت الدراسات اليونانية إلى الحقل العربى عن طريق ثلاثة منابع : فمنذ أيام الإسكندرية ، خضعت الأرض الواقعة بين الفرات ودجلة تحت نفوذ الثقافة الهيلينية . وفى الوقت الذى تناهت فيه أنباء موت (كراسوس)

إلى أسماع بلاط الملك الفارسى (أورديس) كان هـذا الملك يشاهد إحدى التراجيديات التى ألفها (أيوريبيدس) . وفى سنة ٥ م سمعنا عن كسرى خسرو أنوشروان أنه أسس أكاديمية فى (جند ياسابور) فى خوزستان . ورغم سقوط الدولة الفارسية ، فقد استمرت الأكاديمية فى نشاطها طوال ثلاثة قرون انقضت على نهاية الساسانيين . وكان يدرس فى هذه الأكاديمية الفلسفة الإغريقية والطب .

وإلى جانب أكاديمية جنديا سابور ، نجد السوريان فى الجزيرة ينقلون إلى العرب فلسفة وطب الإغريق وقد تركت الفلسفة الإغريقية جذورها بينهم حتى إن اعتناقهم المسيحية لم يؤثر فيها إلا تأثيرا محدودا . وقدرتهم على التحصيل معروفة لكل دارس للتاريخ البيزنطى مما يجعلنى لا أحتاج إلى ذكرها هنا . فقد درسوا إنتاج العلماء الرومان والبيزنطيين واستفادوا من مؤلفات أرسطو والأطباء الإغريق ، وعلماء الطبيعة ، والرياضة ، مثل هيبوقراط وجالينوس ودسكوردس وإيوكليد والعالم البطلى (ألماجست) . وفى البلاد الواقعة بين أنطاكية والموصل ، قام السوريان بترجمة الكتب الإغريقية إلى لغتهم . ويقول (موللر Muller) : « إن من يجيد اللغتين يجد أنه من المستحيل أن يفرق بين الأصل والترجمة السوريانية [1] » .

---

(١) Muller : Der Islam im margen unb. abendland , V. I, p. 510.

كان سكان حرّان ـ وقد انفردوا من بين أهل سوريا بالاحتفاظ بعقيدتهم ـ هم المنبع الرئيسى الذى استمد منه العرب معلوماتهم عن الثقافة والحضارة الإغريقية . وقد تفوقوا على الآخرين بمعرفتهم اللغة العربية ، ولذا كانت ترجمتهم أكثر دقة . وهكذا كانت أكاديمية جنديا سابور ، ورهبان الجزيرة ، وأهالى حرّان ، المصدر الذى استمد منه العرب معرفتهم بالعلوم الإغريقية . كان المنصور مؤسس أمجاد العباسيين ، ففى عهده عاش واضعو العلوم اللغوية ، العالم الفارسى سيبويه ، والعالم العربى خليل فى مدينة البصرة ، والعالم الكسائى الذى يتساوى معهما فى الشهرة فى مدينة الكوفة . وقدّر الخليفة جهود الكسائى فكافأه بأن جعله معلّم ابنه المهدى . وفى عهد المنصور أيضا ، عاش الراوية الأصمعى ، الذى تمتع بذاكرة قوية ، مكنته من جمع الشعر العربى القديم .

فى سنة ١٤٣ هـ ، كما روى الذهبى ، بدأ علماء المسلمين يضعون مؤلفات تتناول الأحاديث ، والفقه ، وتفسير القرآن . فكان ابن جريج فى مكة ، وألف مالك كتابه الموطأ فى المدينة ، وكان هناك الأوزاعى فى سوريا ، وابن أبى رباح وحامد أبو سلمة وغيرهما فى البصرة ، ومعمر فى اليمن ، وسفيان الثورى فى الكوفة [١] . فى سنة ١٤٨ هـ مرض المنصور مرضا خطيرا ، ويئس أطباء

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٦ .

البلاط من معرفة حقيقة مرضه . وسمع الخليفة عن مهارة (جورج) أبرز أطباء أكاديمية جنديا سابور ، فبعث يستدعيه ، وتم شفاؤه على يديه . ومنذ ذلك الحين أصبح لعلماء هـذه الأكاديمية حظوة فى بلاد الخليفة . وأصبح حفيد جورج ، وهو الطبيب المشهور جبريل ، طبيب بلاط هارون .

وفى عهد المنصور أيضا عاش ابن المقفع الذى برز فى الدراسات العربية والفارسية . وكانت ترجمة (كليلة ودمنة) بداية لأدب الرواية عند العرب ، ذلك الأدب الذى بلغ الذروة فى قصص (ألف ليلة وليلة) التى أثارت إعجاب الشرق والغرب على السواء .

ترجم ابن المقفع أيضا إلى اللغة العربية (الشاهنامه) وهى تروى تاريخ أمراء وأبطال فارس ، وكان هذا العمل هو الأساس الذى أقام الفردوسى عليه أعماله . وجدت الحركة الفكرية ، التى يرجّع الفضل فى قيامها إلى الحسن البصرى ، ظروفا حسنة تساعد على انتعاشها ، فى بداية العصر العباسى ، كما وجـدت فى شخص هذيل العلاّف نصيرا كبيرا . فقد اهتم بالدراسات التى تبحث حرية الإرادة وصفات الله . تتضح حرية الفكر فى عهـد الخليفة المأمون الذى سمح بتداول الكتب الدينية للأمم الأخرى ، وقد روى المسعودى أنه فى عهد المأمون أصبحت تعاليم مانى وكتب ابن ديصان ، لأول مرة ،

فى متناول أيدى المسلمين(١) . ومن الغريب أنه فى عهد المنصور ترجمت كتب من عدة لغات مثل لغة السانسكريت ولغات الهند والسند ، بينما أهملت كتب أرسطو ، أبرز مؤلف للفلسفة فى العصور الوسطى .

كان ابن المقفع أول من حاول دراسة منطق أرسطو ، وكان أول من جعل المسلمين يدركون أهمية اللغات فى العصور الوسطى . وإلى جانب النهضة الفكرية هذه ، ظهر فيض من الدراسات الدينية . ولم يستطع المأمون أن يقف فى وجه بعض آراء المدرسة السنية ، بل إن القرار الذى أصدره سنة ٢١٨ هـ عن خلق القرآن لم يلق قبولا .

فى العشر السنوات الأولى من العصر العباسى ، اتخذ الفقه الإسلامى صورته الكاملة . فوضع أبو حنيفة مذهبه الفقهى فى عهد المنصور ، ووضع مالك والشافعى مذهبهما فى عهد هارون . أما فى عهد المهدى ، فكان الإنتاج محدودا ، إذ شغل الخليفة بالقضاء على الهرطقة ، جذورها وفروعها . وفى عهد هارون ، تم جمع عدد كبير من الكتب وانتشر التعليم بين العامة . ولذا أنشأ هارون بيت الحكمة ليحفظ بها الكتب التى جمعها مما يساعد على انتشار التعليم .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٨ ص ٢٩٣ (طبعة باريس) ، انظر حاشية هامة لشبرنجر فى ترجمته لكتاب مروج الذهب ص ١٥٤ .

وحتى يتم المشروع بنجاح ، ولى عدة علماء أمر بيت الحكمة ، فعهد إلى فضل بن نو باخت أمر العناية بالكتب الفارسية ، و إلى يوحنا بن ماساويه ، وهو من جند ياسبور ، أمر الكتب الإغريقية التى جلبها هارون معه من آسيا الصغرى ، ومنح العلماء الكثير من الحرية والتكريم . فقد منح مرة سفيان بن عيينة مائة ألف درهم ، ومنح إسحاق الموصلى ، فى مناسبة أخرى ، مائتى ألف درهم ، كما منح مروان بن أبى حفصة ، مقابل قصيدة مدح ، خمسة آلاف دينار وخلع عليه ، ومنحه جوادا من جياده الخاصة ، وعشرة أرقاء يونانيين .

التفت جماعة كبيرة من العلماء حول هارون الرشيد ، مثل البرامكة ، والقاضى أبو يوسف ، والشعراء مروان بن أبى حفصة وأبو نواس ، وغيرهم ، مما ألقى ضوءا ساطعاً على عصره . وكان الأمين ، على نقيض المأمون ، ينتمى إلى المدرسة السنية . و يروى أنه حينما سمع بنظر ية المر يسى حول خلق القرآن هدد بأنه لو قبض عليه لقطع رأسه . تعرض المسلمون فى عهد المأمون إلى تغيير كبير ، فقد رأى باعتباره أمير المؤمنين ، أن يصدر قرارا بخلق القرآن ،

وطلب من القضاة تأييده[1] . وعارض ابن حنبل بشدة هذه البدعة ، ولكن بعض كبار الفقهاء ، أيدوا رأى المأمون بدون تردد .

يعتبر عصر المأمون أبرز عصور التاريخ الإسلامى بالنسبة للنهضة الأدبية . وإن قد لحق الضعف بالأداة الحكومية ، كما بدأ التفكك يصيب وحدة الدولة . ورأت الحكومة المركزية نفسها عاجزة عن أن ترغم ولاة الأمصار على الطاعة ولا شك أن عظمة بلاط الخليفة المأمون فى بغداد حجب إلى حدّ ما هذا الضعف وتاريخ الدولة الطاهرية خير دليل على ذلك . وبمرور الوقت أصبح الخليفة رمزا يمثل بقايا السلطة . اهتم المأمون بالأدب ، والفلسفة ،

---

(١) قام بتلخيص آراء المعتزلة تلخيصا جيلا كل من دوزى (الترجمة الفرنسية) وبراون (pp. 286—287) .

وهذه التعاليم ظهرت نتيجة لانتشار فلسفة أرسطو ، فقد تأثرت بها . وانقسمت المعتزلة ،مثلها مثل كل شىء فى الحياة ، إلى فرق، وإن كان جميع المعتزلة يتفقون فى نقط معينة (المؤلف) — تتلخص تعاليم المعتزلة فيما يلى : ١ — القول بالمنزلة بين المنزلتين ، أى أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولامؤمن ، لكنه فاسق ، والفاسق يستحق النار لفسقه — ٢ — القول بالقدر وأن الله لايخلق أفعال الناس ، وإنماهم الذين يخلقون أعمالهم ، وأنهم من أجل ذلك يثابون أويعاقبون ، ولهذا وحده يستحق أن يوصف الله بالعدل — ٣ — القول بالتوحيد ، فنفوا أن يكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ، وليست هناك صفات زائدة على ذاته ، والقول بوجود صفات قديمة قول بالتعدد ، والله واحد لاشريك له من أى جهة كان — ٤ — قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ولو لم يرد بهما شرع ، وللشىء صفة فيه جعلته حسنا أو قبيحا (المترجم) .

والعلوم . وحقا ماقيل من أن كل الحركات العقلية التى قامت فى الأمصار الإسلامية يمكن أن ننسبها إلى عصر المأمون . ولمّا كانت أم المأمون فارسية ، فقد كان المأمون ميّالا بالطبع إلى الثقافة والحضارة الفارسية . وظهر هذا الميل بوضوح خلال إقامته فى مرو فى الفترة الأولى من خلافته . وكان يقلد الأكاسرة الساسانيين وخاصة أردشير الذى حاكاه فى كل شىء . ولمّا كان مغرما بدراسة كتب الفرس القديمة ، فقد عمل على حفظ تراث الثقافة والحضارة الفارسية (١) . وقام المأمون بتوسيع وتدعيم بيت الحكمة الذى أنشأه أبوه . واهتم بأنواع عدة من الثقافة ، فلم يقتصر اهتمامه على الثقافة الفارسية ، فقد اهتم بجمع الكتب الإغريقية ، و بعث وفدا إلى ليو الأرمنى لجمع الكتب الإغريقية ، ليطلع عليها . واضطر القيصر إلى الموافقة على ذلك . وفى ذلك الحين ، كان حنين و يعقوب الكندى على استعداد تام لترجمة الكتب الإغريقية إلى اللغة العربية . وقد درس حنين اللغة اليونانية فى الإسكندرية ، كما درس اللغة العربية على يد خليل فى البصرة . و بعد إجادة هاتين اللغتين ، بدأ — تحت رعاية المأمون — ترجمة الكتب الإغريقية . وكانت مهارته عاملا لتقريب المأمون له ، فكان لا ينقطع عن إغداق الصلات عليه . ولما كان حنين نفسه مغرما بالكتب ، فقد تجوّل فى آسيا

---

(١) المسعودى ج ٨ ص ٣٠٠—٣٠١ .

الصغرى وسوريا للبحث عن الكتب . وكان أول كتاب ترجم إلى اللغة العربية هو كتاب بطليموس عن الفلك ، وعنوانه (Terrabiblion) ، وقام بترجمته إبراهيم بن صلت وراجعه وصححه حنين بن إسحق[١] . وكان المأمون نفسه مغرما بالفلك ، وظهر فى تلك الفترة يحيى بن أبى منصور المأمونى الذى وضع جداول فلكية ، كما وضع كتابا فى الفلك سمّاه (كتاب الآمال)[٢] . وقام بمشاهدات فلكية فوق جبل قرب بغداد ، وفوق جبل قيصوم قرب دمشق فى سنة ٢١٥ هـ (٨٣٠ م) وسنة ٢١٦ و٢١٧ هـ ، ولكن وفاة المأمون أدّت إلى وضع نهاية لهذه الجهود . كما يرجع الفضل إلى المأمون فى إصدار أوامره بمساحة الأرض ، وقام بذلك محمود بن موسى بن شاكر[٣] . ولننتقل إلى الكندى ، الفيلسوف العربى ، ومن أجداده كان كان أمراء اليمامة والبحرين . وكان البعض يذهب إلى أنه من أصل يهودى ، ولكن (دى ساسى) أثبت أصله العربى ، فقد كان أبوه والى الكوفة فى عهد الخليفتين المهدى وهارون . قام الكندى بدراسة كتب الإغريق ، والفرس ، والهنود ، التى تتناول الفلسفة ، والطب ، والرياضة ، ونال رضاء المأمون والمعتصم . ويعتبره أبو الفرج ندا لقسطة بن لوقا ، ونجد قائمة

(١) Ibn Khall, V. 3, p. 3Z0

(٢) Ipicl, V. 2, p. 366

(٣) Ipicl, V. 3, p. 315

بأعمال الكندى فى صفحة ٢٢ من كتاب الدكتور (وستنفلد) بعنوان (Geschichte der Arabischen Oerzte) كما اهتم المأمون أيضاً بترجمة الكتب الفارسية ، فكلف سهل بن هروى بهذه المهمة . ومما يؤسف له أن عهد هذا الخليفة الفيلسوف كان قصيرا ، فقد انتهى بوفاته مبكراً . ولو طالت حياته لأضاف إلى المعارف البشرية الكثير .

كان المعتصم قائداً حربيًا أكثر منه عالما ، وعلينا أن نتريث حتى عهد الواثق بالله حتى نشهد استئناف النشاط الأدبى مرة أخرى . كان الواثق حاكما عادلا ، اهتم بترجمة الكتب الأجنبية ، ولم يشهد عهده أى اضطهادات دينية . أصبح يوحنا بن ماساويه ، الذى سبق لنا الحديث عنه ، يد الواثق اليمنى ، وأغدق عليه الواثق صلاته إغداقا لا حدّ له ، ويروى المسعودى أن الواثق منحه مرة من الدراهم ماملأ ثلاثة أكياس .

أما المتوكل بالله ، الذى خلف الواثق ، فلم يشارك سلفه آراءه التقدمية ، واهتمامه بترجمة الكتب الأجنبية . بعد المتوكل ، عانى العباسيون من غوائل الأيام . وتاريخ العباسيين ينقسم إلى خمس فترات[1] : ينتهى عصر النهضة

---

(١) جرت عادة المؤرخين على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى عصرين : العصر الأول ويبدأ من ١٣٢ هـ إلى ٢٣٢ هـ وساد فيه النفوذ الفارسى والعصر الثانى من ٢٣٢ هـ حتى سقوط بغداد فى أيدى المغول (٦٥٦ هـ) ،وينقسم هذا العصر بدوره إلى عصور : عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢ ـ ٣٢٤ هـ) وعصر إمرة الأمراء (٣٢٤ ـ ٣٣٤ هـ) وعصر بنى بويه (٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ) ثم العهد السلجوقى (المترجم) .

والقوة بنهاية عهد المأمون ، ويتنهى عهد نفوذ الأتراك فى سنة ٣٣٤ هـ (١٩٤٦ م) حينما سيطر معز الدولة ، الأمير ، البويهى ، على بغداد . وبعد عصر النفوذ البويهى ، يأتى عصر نفوذ السلاجقة ويبدأ بدخول طغرل بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، وينتهى بوفاة سلطان سنجار . أما العصر الأخير فهو عهد السقوط الذى ينتهى باجتياح المغول بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٠٨ م) وموت المستعصم آخر الخلفاء العباسيين[١] .

وإذا أردنا معرفة التاريخ الأدبى لبغداد ، علينا أن نلمّ بتاريخ العلوم والآداب الإسلامية وسأتحدث الآن باختصار عن العباسيين . وكان (سيديلو Sedillo) على حق حينما قال إن مدرسة بغداد فى بداية عهدها قد اتخذت لها شخصية علمية ، فكان مبدؤها عدم تصديق شىء إلاّ بعد تجربة وفحص . ولا يمكننا أن ننهى الحديث عن تاريخ المسلمين الأدبى إلاّ بعد الحديث عن ذلك المجتمع الفريد المسمّى (إخوان الصفا) ، كان يتألف من أربعين عضوا — ويتشابه فى ذلك تشابها عجيبا مع الأكاديمية الفرنسية — وقد ألقت أعمال هذا المجتمع المتحد أضواء ساطعة على أغراض المسلمين الأدبية والعلمية . ونحن ندين بالشكر للأستاذ (ديتريكى Dietrici) لبحثه العظيم الذى كشف فيه

---

(١) Le Strange : Baghdad under the Abbaside Caliphs, p. 145.

عن بعض أعمالهم الضائعة . وذهب هذا الأستاذ بعيدا إلى حدّ أنه قال إن العرب عرفوا قوانين نيوتن عن الجاذبية (١) .

يثير الفارابى وأبو بكر الرازى اهتمامنا . وُلد الفارابى وتلقى تعليمه فى مدينة فاراب فى التركستان التى كانت تسمى فى غابر الأيام (أورتار) وتعلّم ، إلى جانب لغته الأصلية ، وهى اللغة التركية ، لغات أخرى . ولم يهتم باللغة العربية إلّا حينما عزم على مغادرة وطنه إلى بغداد ، وعند وصوله إليها درس اللغة العربية حتى أجادها . و بدأ دراسة الفلسفة بالاطلاع على كتب أبى بشر مالتا التى نقلها عن أرسطو . وبعد ذلك بفترة وجيزة ، رحل إلى حرّان حيث استمع إلى الدروس التى كان يلقيها الفيلسوف المسيحى (أبو يوحنا بن خِلاّن) ، ثم عاد إلى بغداد ، و بدأ يلقى دروسا فى الفلسفة ، فسّر فى بعضها كتب أرسطو . وكان مغرما بدراسته حتى إنه قرأ كتابا يسمى (De Anima) مائتى مرة ، وقد سجّل فى مذكراته التى كتبها عن هذا الكتاب المشهور . كما ذكر أيضا أنه قرأ كتاب أرسطو عن الطبيعة أربعين مرة ، وأنه يتمنى أن يقرأه مرّات أخرى . وسئل مرّة عمّن يكون أكثر تبحرّا فى الفلسفة ، هو أم أرسطو ؟ فأجاب : لو كنت قد عشت فى الزمن الذى عاش فيه لكُنت أحسن تلاميذه . ومُعظم كتبه البارزة وضعها أثناء إقامته فى بغداد ،

(١) Die Naturan Schaung der Araber, p. 145.

فقد عاش فيها حتى جعل خصومه إقامته فيها مستحيلة . فرحل إلى دمشق ثم إلى مصر . لـكنه ما لبث أن عاد ثانية إلى سوريا حيث انضم إلى جماعة الأدباء الملتفين حول سيف الدولة فى حلب . نال الفارابى كثيرا من الإكرام وحينما رحل سيف الدولة إلى دمشق صحبه إلى هناك . ثم مات سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م)[١] .

أما (أبو بشر مالتا بن يؤاس) أستاذ الفارابى فى المنطق ، فـكان مسيحيا ، يقطن فى بغداد ، وكان مشهورا بأنه أستاذ فى علم المنطق . ومات فى بغداد فى عهد الخليفة الراضى (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) = (٩٣٤ ـ ٩٤١ م) ، وقد ألف كتبا كثيرة نجـد أسمـاءها فى كتاب (طبقات الحـكماء) للزوزانى[٢] .

كان أبو بكر الرازى طبيب الخليفة المقتدر ، وكان معروفا فى أوروبا إلى القرن ١٦ ، ونشرت أبحاثه عن الجدرى والحصبة فى لندن سنة ١٨٤٨ ، وقام بترجمتها والتعليق عليها الدكتور (جرينهل Greenhill)[٣] . وحظى الرازى بإكرام الملك السامانى أبو صاحب منصور بن نوح الذى كتب من أجـله (كتاب المنصور) و يتناول دراسات طبية قيمة ، نظرية وعملية .

---

(١) Wustenfeld , AErste , pp. 53 — 54 ; Ibnkhall , V. III , p. 307

(٢) المسعودى : كتاب التنبيه والإشراف ص ١٠ و ١٧٠

(٣) Ibnkhall , V. III , p. 304

بين العلماء المسلمين تبرز أسماء ثلاثة : حسن بن حسين ، أبو الوفا ، ابن يونس [١] . فكانوا يكونون ثالوثا عظيما . كان (حسن) أول من وضع قواعد الهندسة ، التى قام بتنقيحها أخيرا (كارنو Carnot) وغيره من المهندسين الفرنسيين . أما (أبو الوفا) ، وهو معاصر لحسن ، فقد توصل إلى الاكتشاف الهام الذى ينسب عادة إلى (Tycho Brahe) ، ولكن (سيديلو) أثبت أن أبو الوفا هو المكتشف الفعلى لنظرية خسوف القمر الذى يعتمد على حساب المسافة التى بين الشمس والقمر [٢] . أما ثالث الثالوث ، فهو ابن يونس ، مدير مرصد القاهرة ، ومؤلف جداول الحكمة التى نقحها (كوسان Cussan) .

أدت الاكتشافات العلمية والآراء الفلسفية إلى حرية الفكر ، إلى جانب تشجيع الخلفاء ، ولكن هذه الآراء الفلسفية جعلت علماء الدين ، من أجل أن يسايروا حاجات العصر ، يصقلون أسلحتهم ، فيحدثنا ابن خلدون أن الغزالى وفخر الدين الرازى كانوا أول من استخدم المنطق فى المناقشات الدينية . وكان الغزالى من أعظم المفكرين فى عصره ، عاش فى أيام نظام الملك وحظى بعطفه وتكريمه . ورغم أنه درس كتب ابن سينا إلا أن شهرته

---

(١) Ibnkhall , V. III , p. 3 , p. 320

(٢) Chambers : Decriptive Astronomy , pp. 80—81

فاقت شهرة أستاذه . ويعتبر كتاب (إحياء علوم الدين) أعظم كتبه قيمة ، وهو يشبه ديكارت فى منهج الدراسة ، ولو ترجم هذا الكتاب فى زمن ديكارت لاتّهم بأنه اقتبس آراءه منه [١] .

ولننتقل إلى ابن سينا ، الذى أثّر على الفكر الشرقى والغربى على السواء . ويرجع هذا التأثير إلى الحقيقة التى ذكرها (سكاليجر Scaliger) وهى أن دراسات ابن سينا قامت على أساس دراسة الطب . وضع كتابا فى الفلسفة بعنوان (الشفاء) ، كما وضع كتبا كثيرة معروفة وهى: النجاة ، الإشارة ، القانون . وذكر ابن خلكان أن ابن سينا وضع مؤلفات أخرى كبيرة وصغيرة ، تبلغ حوالى مائة ، إلى جانب بعض الرسائل والأبحاث القصيرة فى مواضيع مختلفة . [٢] ومن العسير أن نذكر بالتفصيل هنا أثره على الفلسفة . تحدثت عن اهتمام العرب بأرسطو ، ولكن من الواجب علىّ أن أقرر أن أفلاطون لم يكن مجهولا من العرب . فقد ذكر القفطى ، الذى كتب فى قاموسه عن الفلاسفة ، وهو (تاريخ الحكماء) تحت مادة أفلاطون ترجمة للجمهورية ، والقوانين ، وطيماوس . وتحت مادة سقراط دوّن فقرات من (كريتون) و (فيدون) [٣] . أصبح العباسيون ، بمرور السنين ، ينحدرون من مىء

(١) Lewes : History of Philosopny , V. II , p. 49

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٤٣

(٣) Lewes , V. I , p. 443

إلى أسوأ . وذكر أبو الفدا أن (الراضى بالله) كان آخر خليفة ينظم شعراً يستحق الذكر ، وكان يصعد المنبر ليخطب ، وجمع حوله مجموعة من العلماء ، وكان بلاطه وثروته يجعلانه جديرا بالإمارة [١] . ومن الحقائق الملحوظة ، أن العباسيين صاروا ألعوبة فى أيدى الوزراء ، وظهرت دويلات عديدة ثم اختفت ، بعضها يعترف بسلطة الخليفة باعتباره أمير المؤمنين ، والبعض مستقل ، ولكن مؤسسى هذه الدويلات اتفقوا على شىء واحد هو نشر العلم وتشجيع النهضة الأدبية [٢] . فى عهد أسد الدولة الذى كان يقرّب العلماء والأدباء ، عاش الفلكى (عبد الرحمن الشافعى) . كما أسبغ كل من المنصور السامانى وسيف الدولة الحمدانى عطفهما على الفارابى . وجمع نظام الملك ، الذى تولى الوزارة لكل من ألب أرسلان وملك شاه ، حوله جماعة كبيرة من العلماء . وقرّب صلاح الدين إليه بهاء الدين ، والقاضى الفاضل ، وعماد الدين الكاتب . وكان بلاط بعض الأمراء مركزا لانتشار العلم . وأنشأ كثير منهم المكتبات والمدارس ، وحاول كل منهم أن يتفوّق على الآخر فى تشجيع الآداب . وبجانب هؤلاء ، كان هناك جماعات خاصة ، تشبه جماعة واصل بن عطاء فى البصرة وجماعة إخوان الصفا ، وكان المسجد هو مكان المناقشات

(١) طبعة (Reiske) جـ ٢ ص ١٤

(٢) The Islamic Libarieries

وحيث يلقى العلماء محاضراتهم . وكان يحتشد حول العلماء جمهرة كبيرة من تلاميذهم المعجبين بهم . وكان يدرّس فى المسجد ، إلى جانب الدراسات الدينية ، فروع أخرى من العلم مثل الأدب ، وعلوم اللغة ، والفلسفة ، و بعض الرياضيات . ذكر المؤرخون المصريون ، أنه فى عهد العزيز نزار ، ألقيت فى جامع الأزهر فى القاهرة القديمة ، محاضرات فى مختلف فروع المعرفة ، وكانت الحكومة تعطى العلماء أجورهم . كما كان ابن هشام المخزومى يلقى دروسه بانتظام فى الجامع الكبير فى دمشق . وفى عهد بلال بن أبى بردة (المتوفى سنة ١٢٦ هـ) كانت قواعد اللغة تدرس فى المساجد ، وكان السُلامى (المتوفى ٧٤ هـ) يدرّس قراءات القرآن فى مسجد الكوفة . ونحن نعلم أن أول مدرسة للأدب العربى قد أسسها ابن عباس وكان هو نفسه يلقى محاضرات بانتظام على الجماهير فى وادى قرب مكة [1] . ولكن المدارس والكليات بشكلها المألوف لنا لم تكن بعد قد ظهرت . ويرى (فون كريمر) أن ظهور المدارس لم يكن عند تخصيص جزء من المسجد وإطلاق اسم (مدرسة) علية، بل كان عندما ظهرت جماعة أيقنوا أنه من الصعب عليهم أن يستمروا فى الحياة بواسطة هذه المعلومات الخاطفة . وكانت رغبة هذه الجماعة فى إيجاد دراسة عميقة كافية ، عاملا على إنشاء المدارس ولنرى جهود الخليفة الحاكم من أجل تحقيق هذا الغرض .

(١) Ibn Khall., Introduction, V. I, p. 30

من الصعب أن نحدد مؤسس أول أكاديمية إسلامية . ولكن المتفق عليه أنه كانت هناك مؤسسات مشابهة قبل عهد نظام الملك . ويذكر بعض المؤرخين أن أول مؤسسة من هذا النوع أنشئت فى بغداد سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) ، ثم أنشئت أخرى فى سنة ٤٠٠ هـ فى نيسابور[١] . كان الأتقياء الذين يطمعون فى ثواب الله ، ينشئون المدارس ويوقفون عليها بعض أملاكهم لسدّ حاجات المدرسين والطلبة ، فقد كان من المألوف أن يأخذوا جراياتهم . ومن الحقائق الثابتة ، أنه إلى عهد المستنصر ، حينما بدأ المغزل يهددون بغداد ، لم ينشىء واحد من الخلفاء العباسيين المدارس . ولا أجدنى فى حاجة إلى الإطالة عليكم فى تعداد المدارس التى أنشأها أمراء وأشراف المسلمين ، ويكفى أن أقول إن النساء لم يتخلفن عن هذا الأمر ، ويحدثنا التاريخ عن مدرسة الزهراوية التى أنشأتها ابنة نور الدولة وبنت أخى صلاح الدين ، وعن مدرستين فى دمشق أنشأتهما (ست الشام)[٢] . وأرجو أن تسمحوا لى بأن أذكر بعض التفاصيل عن أشهر اثنين من هذه المدارس ، وهما النظامية والمستنصرية ، وهما فى بغداد . أسس نظام الملك سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م)

(١) Von Kremer : Calturgeschichte des Orients , V. II , pp. 480—481

(٢) Wustenfeld , Die academian der Araber , pp. 91—95

هـذه المدرسة فى بغداد ، كما أنشأ مدرسة أخرى تحمل نفس الاسم فى مدينة نيسابور . وسرعان ماأصبحت أشهر المدارس فى ذلك العصر والعصور التالية ، وكان من بين أساتذتهما عالم الدين (الغزالى)، والمؤرخ (بهاء الدين) . وكانت مدرسة النظامية فى حالة طيبة فى عهـد ياقوت ، فوصفهـا بأنها تقع بين باب الأزاج على نهر دجلة ، و باب الباسلية قرب سور بغداد[1] . وأدّى الرحالة الأندلسى ابن جبير فى مدرسة النظامية الصلاة فى أول يوم وصوله إلى بغداد . وكان ذلك فى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) وذكر أنها أعظم مدرسة بين ثلاثين مدرسة تقع فى شرق بغداد . وروى ابن جبير أيضاً أنه فى ذلك اليوم قـدم أصحاب الأوقاف من بلادهم يحملون إيرادات الأوقاف الموقوفة على المدرسة ليدفعوا أجور المدرسين ، و ينفقوا على وسائل المحافظة على المبانى ، إلى جانب منح الإعانات إلى الطلبة الفقراء .

زار ابن بطوطة بغداد سنة ٧٢٧ هـ ، بعد أن تعرضت بغداد لحصار المغول ، ووجد مدرسة النظامية فى حالة طيبة . وفى كتاب وضع بعد ١٢ سنة من كتاب ابن بطوطة ، كتب المؤرخ الفارسى (حمد الله) بإيجاز عن مدرسة النظامية فسمّاها (أم مدارس بغداد) . وهـذا يدل على أنه إلى مابعد منتصف

(١) انظر Le Strange : Baghdad under The Abbaside, pp. 297—300

القرن ١٤ الهجرى كانت المدرسة لا تزال قائمة ، وإن اختفت معالمها تماما فى الوقت الحاضر .

أما المستنصرية ، فقد أنشأها المستنصر ، وقد تولى قبل المستعصم آخر خلفاء البيت العباسى [١] . وأراد أن تبز المدرسة النظامية التى أنشئت قبل ذلك بنحو قرنين ، ويُروى أن هندسة المدرسة المستنصرية وأثاثها كان من الفخامة والعظمة مما يجعل لا نظير لها . كانت المدرسة تحتوى على أربعة أقسام مستقلة ، قسم لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة يرأس كل منها عالم يتولى أمر تعليم خمسة وسبعين طالبا . ويتلقى العلماء الأربعة راتبا شهريا ، كما يمنح كل طالب من الطلبة الثلثمائة دينارا ذهبيا . ويقدّم المطبخ الكبير الملحق بالمدرسة إلى أسرة المدرسة مايلزمهم من خبز ولحم . ويذكر ابن الفرات أنه كانت هناك فى المدرسة المستنصرية مكتبة تحوى كتبا نادرة فى مختلف العلوم ، ووضعت نظم تمكن جميع الطابة من الاطلاع عليها بسهولة ، ونسخ مايريدون من المخطوطات ، فكانوا يمنحون مايلزمهم أقلام وأوراق .
ومن حسن الحظ ، أن المدرسة المستنصرية ، مثلها مثل المدرسة النظامية ، نجت من تخريب المغول ، وأشاد كل من ابن بطوطة وحمد الله بعظمتها .
وحينما زار (نيبهر Niebhur) بغداد سنة ١٧٥٠ وجد مطبخ المدرسة

---

(١) Ipid , pp. 267 — 269

المستنصرية مازال قائمـا وإن كان يستعمل فى تلك الأيام كدار للموازين . ونقل (نيبهر) لنا بعض الـكتابات التى حوت اسم وألقاب المستنصر ، وأن المدرسة تم بناؤها فى سنة ٦٣٠ هـ . وما زال هنـاك المزيد من الحـديث على المدارس .

لم يكن الفاطميون والمماليك فى مصر أقل اهتماماً من العباسيين تشجيعا للتعليم . وفى كتاب (حسن المحاضرة) للسيوطى ، يجد القارئ كثيرا من المعلومات عن حالة التعليم والعلماء فى مصر اهتم المعز وخلفاؤه الثلاثة بتشجيع التعليم . وحـذا الفاطميون فى مصر حذو العباسيين فى تشجيع الآداب ، ووصلت مصر من مراتب الشرف ماوصلت إليه بغداد . وقد تحدثت عن ابن يونس ، وقد قام بإتمام اكتشافاته كل من ابن النبدى الذى عاش فى القاهرة سنة ١٠٤٠ ، والحسن بن الهيثم الذى اشتهر باكتشافه نظرية انكسار الضوء ، وقد ولد فى الأندلس وأقام فى مصر . أسس الحـاكم بأمر الله ، سادس الخلفاء الفاطميين (دار الحـكمة) ، وهى تختلف عن أى مـدرسة فى الأمصار الإسلامية . ونجد وصفا مطولا لها فى بعض الـكتب[1] .

قبل أن نتحدث عن المسلمين بالأندلس ، نتحدث عن الأعمال التاريخية والجغرافية التى خلفها العرب . ذكر (حاجى خليفة) أكثر من ١٢٠٠ كتاب تاريخيى ، ولا شك أن هناك من الـكتب التى لم يعرفها هـذا المؤلف

---

(١) انظر The Islamic Libraries

الذى وضع سجلا للكتب[١] . و بين عصر ابن هشام الذى عاش فى عهد المنصور ، وعصر ابن خلدون الذى كان معاصرا لتيمور ، تعاقب المؤرخون كما يتعاقب الأنبياء . كان ابن هشام هو فاتحتهم ، وكان ابن خلدون يمثل انتصار النهضة التاريخية عند المسلمين .

ولد الطبرى سنة ٨٣٩ م فى طبرستان (ولذا سمّى الطبرى) ومات فى بغداد سنة ٩٢٣ م ، ويقع كتابه فى أكثر من اثنى عشر جزءا ، ونحن ندين للعلماء الأوروبيين لقيامهم الآن بطبع الكتب[٢] . روى الطبرى تاريخ الأحداث إلى القرن العاشر ، ولكن رواياته عن السبعين سنة الأخيرة كانت موجزة ومتقطعة . فى سنة ٩٦٣ فى العهد السامانى ، قام منصور بن محمد بترجمة الكتاب إلى اللغة الفارسية . ولمّا كان الطبرى ملمّا بالتاريخ الفارسى ، فقد نقل عن كتاب (شاهنامه) أو (كتاب الملوك) المؤلف فى عهد خسرو الأول ، ثم استمر فى رواية الأحداث بعد ذلك إلى سنة ٦٢٨ م فى عهد يزدجرد الثالث[٣] . وسبق لى أن ذكرت أن كتاب (شاهنامه) قد

---

(١) توفى حاجى خليفة سنة ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م وكتابه هو (كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (المترجم) .

(٢) طبع الكتاب عدة طبعات عربية قام بها ناشرون عرب (المترجم) .

(٣) إذا أردت تاريخا كاملا منظما ، فارجع إلى تاريخ الطبرى الذى يؤرخ للعالم منذ بدء الخليقة إلى سنة ٣٠٩ هـ ، وإذا رجعت أيضا إلى تاريخ أحمد بن طاهر وابنه عبيد الله فإنك تكون قد أحسنت التصرف ، فقد أجادوا دراسة تاريخ الدولة العباسية ، وأعطيا كثيرا من التفاصيل الممتعة التى لا تجدها فى كتاب الطبرى ، وقد رويا نفس الأحداث التى رواها =

ترجمه ابن المقفع إلى اللغة العربية فى القرن الثامن . ويبدو أن الطبرى لم يستعمل لا الأصل اليهودى ولا ترجمة ابن المقفع ، وإنما استعان بترجمة أخرى . أما فيما يتعلق بعصر الخلفاء ، فقد استعان الطبرى بكتب ابن إسحق والواقدى عند الحديث عن الفتوحات الإسلامية ، واستعان بكتاب على ابن محمد المسعودى عند الحديث عن العصر الأموى وأول العصر العباسى . ثم يأتى دور البلاذرى ، وكتبه تهم من يبحث فى التاريخ الحربى للعرب وقد عاش فى بغداد فى القرن التاسع . ومن معاصرى البلاذرى ، ابن قتيبة ، مؤلف كتاب المعارف ، ورغم أنه كتاب صغير إلا أنه كتاب قيّم إذ يهتم بالعرب الأوائل

= الطبرى وإن كانا أضافا تاريخ بعض السنوات . ثم يأتى دور تاريخ (ثابت) الذى يؤرخ لفترة أرخ لها الطبرى ولكنه يصل بنا إلى سنة ٣٦٣ هـ وإن كنا نجد كثيرا مما ذكره (ثابت) فى تاريخه مدونا فيما كتبه (الفرغانى) إلا أن القارىء يجد فى تاريخ الفرغانى كثيرا من التفاصيل مما لايجدها فى بعض المواضع فى تاريخ ثابت . ثم يأتى دور التاريخ الذى كتبه (هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابى) وهو يؤرخ لنفس الفترة التى أرخ لها خاله (ثابت) ثم يؤرخ للأحداث حتى سنة ٤٤٧ هـ ، ولم يدرس أحد هذه الفترة مثلما درسها (هلال) ، فقد درس الحركات والدول المختلفة دراسة متمعنة . واعتمد من دراسته للأحداث على كتاب جده (كتاب الإنشا) ، وكان هلال يتولى وظيفة حكومية مما ساعده على كتابة تاريخه وخاصة فيما يتعلق بالحكومة . ثم قام ابنه (محمد بن هلال) بإتمام تاريخه ، فامتد إلى سنة ٤٧٠ هـ . ونلاحظ أن الجزء الأخير من كتابه ، لسبب ما ، ليس فى مستوى الأجزاء الأولى من الكتاب . ثم يأتى دور ابن الهمدانى الذى يحوى الأحداث التى أرخ لها محمد بن هلال ثم يضيف إليها الأحداث حتى سنة ٥١٢ هـ . وأضاف أبو الحسن الراغونى إلى هذا الكتاب بعض الإضافات ، ولكن كتابته لاتبعث على الرضا إذ أن كتابة التاريخ ليست جزءا من مواهبه ، وقد أرخ إلى سنة ٥٢٧ هـ . ثم جاء صدقة الحداد فأرخ الأحداث إلى سنة ٥٧٠ هـ . ثم تلاه الجوزى الذى وصل تاريخه إلى سنة ٥٨٠ هـ . ثم جاء أخيرا ابن القدسى الذى انتهى تاريخه لسنة ٦١٦ هـ .

وبالفرس[١] . ومن معاصرى البلاذرى أيضاً ، عبد الحكم وقد وضع كتاباً عن فتوح مصر والمغرب ، وتوفى فى مصر سنة ٨٧١ م . أما المسعودى ، وهو أعظم من جميع من ذكرنا من المؤرخين ، فقد ولد سنة ٩٠٠ م ومات سنة ٩٥٦ م ، كتب تاريخا عن أحداث الماضى ، وإن كان قد دوّنه فى إيجاز ولكن له قيمته ، وجعل اسمه (مروج الذهب) ، ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب قد وصل إلينا. يتميز هذا الكتاب بأن المؤرخ أبدى آراءه فى الأحداث التاريخية ، كما أنه لم يقصر اهتمامه على التاريخ الحربى ، بل اهتم بالأدب والدين ، وبالثقافة بصفة عامة[٢] . وهناك مؤرخون ظهروا فى وقت متأخر مثل المكين وأبو الفدا وابن الأثير ، وقد استفادوا من كتاب الطبرى ونقلوا عنه . كتب ابن خلدون التاريخ بأسلوب حديث وعلى أسس جديدة . وتعتبر مقدمته بدون شك أبرز الكتب من هذا النوع . ومن العسير أن نعطى فكرة واضحة عن هذا الكتاب فى كلمات قليلة . ويكفى إن نقول أن تعريفه للتاريخ ، وطريقة العرض والتبويب ، ودراسته للعوامل الخارجية التى تؤثر فى حياة الأمم ، وملاحظاته عن حضارة العرب ، وبصفة عامة طريقته فى دراسة الأحداث التاريخية ، تعتبر فجر الدراسة الحديثة لعلم التاريخ[٣] .

---

(١) ابن قتيبة : هو محمد عبد الله بن مسلم توفى ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م وله كتب أخرى غير المعارف منها عيون الأخبار ، والإمامة والسياسة ، والشعر والشعراء (المترجم)

(٢) المسعودى : هو أبو الحسن على بن الحسين بن على توفى (٣٤٦ هـ = ١٤٠٥م) وله غير (مروج الذهب ومعادن الجوهر) كتاب التنبيه والإشراف .

(٣) ابن خلدون : هو عبد الرحمن بن محمد توفى (٨٠٨ هـ = ١٩٥٦م) وله بجانب المقدمة كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر) — (المترجم) . . .

ولننتقل إلى الجغرافيين العرب . ونحن لاندعى أن آراءهم الجغرافية ، دقيقة تماما . ولكنى أحب أن أقول إنهم أرادوا ألا تظل الجغرافية علما مجهولا . كتب (ابن خرداذبه) أول كتاب فى الجغرافية [١] . وتبعه (قدامة) الذى وضع كتاباحوى دراسات جغرافية عملية ، وقداهتم بالتوقيت فى ولايات الدولة ، مما أدى إلى تنظيم خدمات البريد بين الولايات [٢] . وذكر (فون كريمر) أن معلومات قدامة الجغرافية كانت صحيحة . وقد فطن إلى كروية الأرض وقصر النهار فى القطبين . ولكن قبل المقدسى [٣] ، الذى وضع كتابه سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٥ ـ ٩٨٦ م) ، كان سائر الجغرافيين المسلمين غارقين فى الجهل ، ويعتبر كتابه دائرة معارف بحق ، وتحدث المؤلف عن كتابه ، فذكر أنه يتألف من ثلاثة أقسام ، يشمل القسم الأول مشاهداته ، ويشمل القسم الثانى ماسمع به من أشخاص موثوق فيهم ، ويشمل القسم الثالث ماقرأه فى الكتب . ويعتبر (ياقوت) و (أبو الفدا [٤]) بين المؤلفين المثقفين المجتهدين .

---

(١) هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله توفى (٢٧٢ هـ = ٨٩٥ م) وأشهر كتبه (المسالك والممالك) و (اللهو والملاهى) ـ (المترجم) .

(٢) قدامة : هو أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادى توفى (٢٧٦ هـ = ٨٨٩م) وكتابه المشهور (نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة) ـ (المترجم) .

(٣) المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد توفى (٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (المترجم) .

(٤) ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى توفى (٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) كتابه معجم البلدان ـ أبو الفدا : إسماعيل بن على عماد الدين (٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) كتابه تقويم البلدان (المترجم) .

ولنلق نظرة سريعة إلى المسلمين فى الأندلس . استولى المسلمون على الأندلس بين (٧١٠ ـ ٧١٢ م) ، وكان يحكمها ولاة يعينهم الأمويون فى دمشق . وحينما سقطت خلافة دمشق ، نجا من بين الناجين من الأمويين ، عبد الرحمن الابن الأكبر لهشام عاشر الخلفاء الأمويين . وكانت الأندلس (اسبانيا) قد مزقتها خلافات العرب والبربر ، مما أتاح الفرصة له ليصبح أميرا عليها . وفى أواخر سنة ٧٥٥ م استقر فى الأندلس ، وفى العام التالى بايعه مسلمو الأندلس . وظلت ذريته تحكم طوال قرنين ونصف قرن ، متعرضين لثورات مسيحيي الشمال . ولقب عبد الرحمن نفسه بلقب (خليفة) سنة ٢٢٩ م ، إذ لم يرض بلقب أمير أو سلطان . وكان عبد الرحمن الثالث أعظم هؤلاء الملوك . فهو لم يصدّ ملك ليون ، وكاستيل ، ونافار ، فحسب ، بل حمى الأندلس من الأخطار التى تهددها من إفريقية . و بعد عبد الرحمن الثالث ، لم يشهد تاريخ الأندلس نظيرا له . ولكن يجدر بنا أن ننوه بالوزير المشهور المنصور الذى حفظ للدولة وحدتها بعض الوقت [1] . فى أوائل القرن

---

(١) هو المصنور بن أبى عامر ، ولد فى إحدى قرى مدينة الجزيرة الخضراء جنوبى الأندلس وينتمى إلى قبيلة معافر القحطانية ، درس فى جامع قرطبة . لما آلت الخلافة إلى هشام المؤيد وأصبحت أمه صبح صاحبة السلطة قربت إليها ابن أبى عامر الذى كان يقوم بكتابة الرسائل . ثم اتصل بكبير الحجاب فأسند إليه بعض الأعمال بالقصر ، واكتسب ثقة صبح فأسندت له القضاء ثم الزكاة والمواريث ثم أملاك ولى العهد . وتمكن من القضاء على مؤامرة الصقالبة فحاز ثقة الناس ، ثم تولى كرسى الحجابة وأصبح الحاكم الحقيق للأندلس. غزا أكثر من خمسين غزوة ، استولى على ليون وهدم قلاعها ، وقهر برشلونة وقشتالة ونافار . وكان يشجع العلماء والأدباء ، مات سنة ٣٩٣ هـ بعد أن حكم ٢٧ سنة (المترجم) .

الحادى عشر كانت الأندلس مسرحا لأحداث مؤلمة . فقد تفاقمت الخلافات مما هدّد وحدة الدولة . وظهرت دويلات صغيرة عديدة عرفت فى التاريخ الأندلسى باسم (عهد ملوك الطوائف) . ومن بين هؤلاء يذكر التاريخ (بنى عباد) فى (أشبيلية) الذين حفظوا مجد الإسلام حتى ظهر المرابطون على مسرح الأحداث .

نافست خلافة قرطبة خلافة بغداد فى الاهتمام بالفن ، والآداب ، والعلوم ، إن لم تكن قد تفوقت . أهتم المسلمون بالأندلس بقواعد اللغة والبلاغة . وينوه ابن سعد الأندلسى بتفوق الأندلسيين فى دراسة هذين العلمين إلى حدّ أنه لا يتردد فى أن يقرر أنه كان فى الأندلس علماء يقفون على قدم المساواة مع اللغويين والبلغاء فى عصر خليل وسيبويه [1] . ونال الأندلسيون العرب تقدما ملحوظا فى الطب ، وسأذكر لكم أسماء يحيى بن إسحق ، والكتانى ، والزهراوى ، وابن زهر . وضع ابن زهر (كتاب التيسير) وهو كتاب طبى يتناول فن المحافظة على صحة الجسم ، وهو الكتاب الذى قام الدكتور (باراڤاكى Paravaci) بمساعدة طبيب يهودى يدعى يعقوب ، بترجمته إلى اللغة اللاتينية (١٢٨١ م) عن ترجمة عبرية ، ليستفيد منه (جون داندولو Dandolo) دوق البندقية ، وقد طبع منها عدة طبعات فى أوروبا . أما كتاب (الزهراوى) فيتناول الجراحة ولا يزال موجودا ، وإنى أشعر بالفخر

---

(١) المقرى ج ١ ص ١٤٢ .

إذ أن المكتبة العامة فى هذه المدينة تملك نسخة ممتازة منه ، عاش يحيى بن إسحق فى عهد عبد الرحمن الثالث الذى ولاه الوزارة ، وقد وضع كتابا قيما عن المواد المستعملة فى الطب [١]

كان عصر الحكم الثانى العصر الذهبى للعلم فى اسبانيا . فقد كان الخليفة مغرما بالكتب ، فبعث رجاله إلى جميع الأرجاء فى الشرق لجمع الكتب النادرة ، واستطاع الخليفة أن يكون مجموعة كبيرة قيمة . وذكر ابن الأبر أن قوائم أسماء الكتب بلغت أربعين مجلدا رغم أنها لم تكن قد اكتملت بعد [٢] . وفوق ذلك ، بدأت فى عهد (الحكم الثانى) دراسة الفلسفة . ومن بين فلاسفة الأندلس يحتل ابن باجة و (ابن رشد) المكان الأول . وإلى جانب كون ابن باجة أستاذا لابن رشد ، فإن الكتاب العرب يقولون عنه لوعقدت مقارنة بين مقالاته ومقالات ابن سينا أوالغزالى ،وهما الفيلسوفان اللذان برزا فى دراسة الفلسفة فى الشرق بعد الفارابى ، فإننا نجد كفة ابن باجة راجحة ، وخاصة إذا تذكرنا وضوح وجمال التعبير وتبحره فى دراسة أعمال أرسطو . أما ابن رشد فكان من أهالى قرطبة حيث قضى فيها السنين الأولى من حياته . درس الطب ، والفلسفة ، والفقه ، وتفوق فيها . عيّن قاضيا فى قرطبة . ولما تولى المنصور قربه إليه ، ولكن مالبث أن غضب عليه لاشتغاله بالفلسفة ، فنفاه إلى مدينة قرب قرطبة . ولكنه عفا عنه بعد فترة قصيرة (١١٩٨ م) . ومات ابن رشد فى مراكش فى أوائل سنة ٥٩٥ هـ .

---

(١) المقرى ص ٤٦٤ .
(٢) المقرى ص ٤١٨ .

أكثر مايلفت نظرنا فى الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، ماتميزت به النساء من ثقافة عظيمة . وهناك أمثلة كثيرة ، نذكرها على أمل أن تكون مثلا عليا لتحتذى نساؤنا حذوهن . وسأقتصر على ذكر القليل منهن : الولادة ، بنت المستكفى ، فى قرطبة ، الشاعرة العربية ، وقد وهبت نفسها لدراسة البلاغة والشعر . وعائشة ، بنت الأمير أحمد ، فى قرطبة ، وقد امتازت بذكائها النادر ، وكانت خطبها تلقى فى الأكاديمية الملكية فى قرطبة وتلقى استحسانا عظيما ، وقد ماتت فى سنة ٤٠٠ هـ ، وخلفت وراءها آثارا أدبية عظيمة ومكتبة غنيّة . ولبانة ، من أهالى قرطبة أيضا ، لم تكن شاعرة فحسب ، بل متبحرة فى الفلسفة أيضا ، وتولت منصبا ، لايتولاه النساء عادة ، وهو منصب السكرتير الخاص للخليفة الحكم . ومريم ، بنت يعقوب الأنصارى ، وكانت امرأة ذات ثقافة عالية ، درست البلاغة ، والشعر والأدب .

والحقيقة ، أنه كان بالأندلس ، زمن قوة المسلمين ، أكثر من سبعين مكتبة عامة ، مما يدل على أن الثقافة لم تكن مقصورة على الطبقات العليا ، بل بين عامة الناس . و بقى لى أن أذكر كلمات قليلة عن تأثير العلوم الإسلامية على التفكير الأوروبى . انتقلت العلوم الإسلامية إلى أوروبا بواسطة عدة طرق : الحروب الصليبية ، واليهود الأسبان ، وعرب صقلية و إفريقية . وأثر هـذا الانتقال ، الذى شهده القرن الحادى عشر ، فى قارة أوروبا ، إذ أدى إلى انتقال كتب وأفكار العلماء العرب . ورغم أن الحروب الصليبية فشلت فى أن تستولى على الأراضى المقدسة المسيحية من المسلمين ، إلاّ أن الصليبيين

نجحوا فى أن يجعلوا الشرق يلتقى بالغرب للمرة الأولى . فقد تحطم الحاجز الذى كان يحجب الشرقيين عن الغربيين ، وتمكنت أوربا من أن تقتبس من ثقافة الشرق الناضجة . وهناك عامل آخر أكثر أهمية من الحروب الصليبية ، هو علاقات الصداقة بين المسلمين فى الأندلس والإمارات المسيحية ، وهذه العلاقات تدل على سياسة التسامح التى اتبعها الأمويون فى قرطبة . وكانت المدارس الأندلسية فى قرطبة ، وغرناطة ، وتوليدو ، و بلنسية ، وغيرها من مراكز العلم فى العصور الوسطى ، وقد قصدها طلبة العلم من كل أرجاء العالم . ووجد اليهود الذين اضطهدهم القوط ، فى ظل المسلمين ، ملجأ وفرصة لتحصيل العلم . و إن كان بين المسلمين أسماء علماء مثل ابن زهر ، وابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد ، فبين اليهود نجد (ابن عزرا) [١] ، ويوحنا بن جناش ، وابن ميمون [٢] ، وداود الكمشى . وأصبح هؤلاء اليهود ، المنتشرون فى البلاد المختلفة ، بحق رسل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا المسيحية .

تحدث (Ceasar of Heisterbach) عن شباب قصدوا توليدو ليتعلموا الفلك .

و يبدو — كما قال (چوردان Jourdain) أن علم الفلك وعلم التنجيم كان واحدا فى تلك الأزمان [٣] . وعبر (ألفاروس) عن أسفه لإقبال المسيحيين بالأندلس على اللغة العربية وآدابها . وذكر (هوج Hugh) أسقف (سانت

(١) هو إبراهام بن عزرا التطيلى (١٠٩٣ — ١١٦٧ م) — (المترجم) .

(٢) هو موسى بن ميمون أعظم فلاسفة اليهود فى الأندلس — (المترجم) .

(٣) Jourdain : Recherches sar l'ageet l'origine des tra ductions latines d' Aristole , p. 95.

فكتور) ، فى رسالة له ، أنه يفضل أن يدرس الفلسفة الوثنية على دراسة العلوم الإسلامية . ولنغفل أمر (جيربرب Gerberb) التى كانت رحلاته بين المسلمين تثير الشكوك ويَعتبر (رينان Renan) قنسطنطين الأفريقى أعظم معاصريه لأنه درس العلوم الإسلامية . وقد درس (روجر بيكون) بشغف مؤلفات ابن رشد . و بين سنة (١١٣٠ ــ ١١٥٠) ترجمت عدة كتب عربية فى مدينة (توليدو) برعاية الأسقف (ريموند) [١] كما كان اهتمام فردريك الثانى وخلفاؤه بالآداب والفلسفة سببا فى ترجمة كتب الفلاسفة العرب .

استولى الأغالبة على صقلية فى القرن التاسع ، ومنذ ذلك الحين بدأت العلوم الإسلامية تعرف طريقها إلى المسيحيين . وعاش الإدريسى الجغرافى فى بلاط (روجر) فى صقلية وصنع له كرة فضية نقش عليها أسماء البلاد المعروفة وقتئذ بالحروف العربية . وأصبح للعلوم الإسلامية أثرها الكبير على الفكر الأوربى حينما أصبحت تدرس فى جامعة باريس فى السنة الأولى من القرن الثالث عشر ، فكانت تدرس ، كما يقول (ميشيلو Michelot) ، إلى جانب آراء أرسطو ، نظريات ابن رشد [٢] .

لخص (ليكى Lecky) الموقف بصفة عامة فقال : منذ أن انتقل التعليم فى أوروبا من الأديرة إلى الجامعات ، ومنذ أن انتشرت العلوم الإسلامية وأثرت فى الأفكار ، ومنذ أن حطم الانقلاب الصناعى سطوة الكنيسة ، بدأت النهضة الثقافية فى أوروبا .

(١) Gregorovius : Rome in the Middle Ages , vol. V, part II, pp. 619—620.

(٢) Lecky : Hist. of Rationalism , vol. p. 206

فهـــرس

العرب والبيزنطيين ـ تأثير كل من الإسلام والمسيحية على الآخر ـ جهل المجتمع المسيحى بالإسلام ومحمد ـ ترجمة الكتب العربية فى القرن الثانى عشر وأثره ـ آراء المسيحيين حول محمد ـ أسباب جهل المسيحيين فى العصور الوسطى بالإسلام ومحمد ـ العامل الرئيسى سيطرة الكنيسة ـ أوروبا تعتبر الإسلام خطرا على المسيحية ـ المصادر البيزنطية غير صادقة ـ عداء البيزنطيين للإسلام ـ محمد كما يصوره كتاب العصور الوسطى ـ قصة الراهب بحيرى ـ (كما رواها ابن إسحق والطبرى والمسعودى وابن الأثير وكتاب العصور الوسطى) ـ مؤلفات القرن ١١ م تحفل بالإتهامات الموجهة إلى الإسلام ـ الهجوم على القرآن ـ مؤلفات بيتر ـ المناظرات بين رجال الدينين الإسلامى والمسيحى ـ اتهام المسلمين بالوثنية ـ افتراءات الكتاب المسيحيين على محمد ـ مناقشة آراء وليام ـ الكتاب الذين أنصفوا الإسلام .

تاريخ ظهور الأتراك فى التاريخ الإسلامى . ازدياد نفوذ الأتراك ـ سيطرة الأتراك على الخلافة العباسية ـ ظهور السلاجقة ـ صراع السلاجقة والبويهيين ـ جهود طغرل بك ودخوله بغداد ـ موقف الدولة البيزنطية من السلاجقة ـ جهود ألب أرسلان ـ صراع ألب أرسلان والدولة البيزنطية ـ جهود ملك شاه ـ اتساع نفوذ السلاجقة فى آسيا الصغرى ـ موقف البيزنطيين من السلاجقة ـ ضعف الدولة السلجوقية بعد وفاة ملك شاه ـ انتشار الروح

القيروان ـ موقف الوليد وسليمان من الدولة البيزنطية ـ أثر انشغال الخلفاء بالمشاكل الداخلية .

استبداد الولاة ـ الحكومات الوراثية ـ إمارة الاستيلاء ـ مظاهر ونتائج ضعف الخلافة .

الجغرافيون العرب (ابن خرداذبة ـ قدامة ، المقدسى ، ياقوت ، أبوالفدا) ـ علوم المسلمين فى الأندلس ـ اهتمام الأندلسيين باللغة والبلاغة والطب ـ عصر الحكم الثانى العصر الذهبي للعلم ـ ابن باجة ـ ابن رشد ـ انتشار الثقافة بين نساء الأندلس ـ انتشار المكتبات العامة ـ مدارس الأندلس وقصد المسيحيين لها ـ ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الإفرنجية ـ أثر العلوم الإسلامية على الفكر الأوروبى .


Bibliotheca Alexandrina
0434450